﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

حسن محمد

للمساجد وبيوت العبادة في الإسلام وتشريعاته وآدابه قرآناً كان أو سنةً، وفي تراث وواقع هذه الأمّة التاريخي والاجتماعي، وفي حاضرها ومستقبلها أهميةٌ كبرى ودورٌ عظيم؛ لهذا فقد حظيت بعناية الأمّة في جميع العصور وما زالت هذه العناية تترى، وستبقى ـ بإذن الله ـ حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. فهي إضافةً إلى كونها أشرف البقاع وأطهرها، تُعدُّ أنسب مكان لبناء عقائد الناس الصحيحة، ونشر التعاليم الإسلاميّة،

وتهذيب نفوسهم، وتربيتهم وتزكيتهم، وتشييد أخلاقهم وقيمهم العالية، ولقبول عباداتهم من قبل الله تعالى، وتعظيم أجورهم..، فهي دار عبادة، ومنبع كلّ خير، وأعظم كلّ نعمة وعطاء، وأفضل مكان تتضاعف فيه الأجور والحسنات، وقد شاء الله أن يُعبد فيها، وأن يُجزل الثواب للعبّاد فيها؛ لهذا ولغيره الكثير، راحت النفوس المؤمنة تهوي إليها، وغدت القلوب التي تنشد رضا ربِّها تتوق إليها، فسجلت في حياة المؤمنين عنواناً فريداً ومنزلة رفيعة..، وكيف لا يكون لها جميع ذلك والمزيد، وفضائلها لا تعدُّ، وما جاء في إجلالها وتعظيمها لا يُحصى! يكفيها أن اختصّها جلَّ ذكره لنفسه: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ**﴾ فأضافها إلى ذاته المقدسة بلام الاختصاص؛ مؤكّداً ذلك بقوله: ﴿**فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً**﴾.[1]

وعلى اختيار كثير من المحققين؛ أنَّ فيها تلك المشكاة، التي ضربها الله مثلاً لنوره في الآية ٣٥ من سورة النور:

﴿**اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

ثمَّ جعلها:

﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ**

---

١. الجن : ١٨ .

وَالآصَالِ﴾.

ومع بيان هذه الآية لأهمية تلك البيوت، وما يقع فيها من العبّاد فيها، بيّنت الآيتان بعدها صفات روّادها، وما أعدّت السماء لهم من فضل ورزق كريم غير محدود ولا منقوص:

﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الأَبْصَارُ ۞ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.[1]

فهي بيوت هذه صفتها، وكفى بها منقبةً عظيمةً لها وبياناً لفضلها،.. يعضد ذلك قوله صلى الله عليه وآله:

«المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض».

وخير هذه البيوت، وأجدر بتلك المشكاة وما فيها، هو ذلك البيت الأول:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.[2]

وهو ذلك الذي نسبه الله تعالى إلى نفسه، فهو بيته، في أكثر من آية مباركة؛ وهل هناك أفضل وأعظم وأقدس من بيته سبحانه وتعالى، وأولى بذلك النور:

---

١. النور : ٣٥ – ٣٨ .

٢. آل عمران : ٩٦ .

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[١]

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[٢]

وأفضل المساجد: إمامها وقبلتها؛ المسجد الحرام، الذي اختصّه الله سبحانه وتعالى بآيات عديدة، ومنها أن اختاره قبلةً لحبيبه المصطفى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله بعد أن تقلّبت عيناه هنا وهناك في السماء، يبحث عن قبلة يُحبّها:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾.[٣]

وإن جاء عن أنس بن مالك وبريدة:

«قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية ﴿فِى بُيُوتٍ﴾...، فقام إليه عليه الصلاة والسلام رجل فقال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وآله: بيوت الأنبياء عليهم السلام، فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها ـ لبيت علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما ـ قال: نعم من أفاضلها».

---

١. البقرة : ١٢٥.

٢. الحج : ٢٦ .

٣. البقرة : ١٤٤؛ وانظر الآيتين : ١٤٩ ، ١٥٠ .

وهنا يقول الآلوسي: وهذا إن صحَّ لا ينبغي العدول عنه.

وأيضاً الشيخ الطبرسي؛ يقول: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ**﴾ معناه هذه المشكاة في بيوت هذه صفتها وهي المساجد في قول ابن عباس والحسن ومجاهد والجبائي، ويعضده قول النبيّ صلى الله عليه وآله:

«المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض».

ثم قيل: إنها أربع مساجد لم يبنها إلاّ نبي الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل ومسجد بيت المقدس بناه سليمان ومسجد المدينة ومسجد قباء بناهما رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وقيل: هي بيوت الأنبياء، وروي ذلك مرفوعاً أنه «سئل النبيّ صلى الله عليه وآله لما قرأ الآية أيُّ بيوت هذه؟ فقال: «بيوت الأنبياء». فقال أبوبكر: يا رسول الله هذا البيت منها يعني بيت عليّ وفاطمة؟ قال: نعم من أفاضلها».

ويعضد هذا القول قوله: ﴿**إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾.[1]

وقوله: ﴿**وَ رَحْمَةُ اللهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾.

فالإذن برفع بيوت الأنبياء والأوصياء مطلق، والمراد بالرفع التعظيم ورفع القدر من الأرجاس والتطهير من المعاصي والأدناس. وقيل: المراد

---

١. الأحزاب : ٣٣ .

برفعها رفع الحوائج فيها إلى الله تعالى: ﴿وَيُذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ﴾، أي يتلى فيها كتابه عن ابن عباس. وقيل: تذكر فيها أسماؤه الحسنى...

قد رفعت تلك البيوت وتلك المساجد تعظيماً وتنزيهاً لها عن النقائص، فعن ابن عباس: هي المساجد، أمر الله أن تُبنى، أو تعظيمها والرفع من قدرها. وعن الحسن: ما أمر الله أن ترفع بالبناء، ولكن بالتعظيم. كما وردت أحاديث كثيرة في بنائها وفضلها وفي احترامها وتوقيرها...[1]

لم تسلم هذه البيوت أو المساجد وخاصة المسجد الحرام عبر العصور وإلى يومنا هذا من الاعتداء على حرمته، ومن المنّ والأذى في عمارته وفي ولايته وفي صدّ حجّاجه عنه.. نجد هذا في العديد من الآيات القرآنية: ففي عمارته التي أسندتها السماء إلى الذين آمنوا بعد أن نفتها عن غيرهم:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ۞ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَءَاتَىٰ ٱلزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ ٱللهَ

١. انظر في هذا كلّه التفاسير، ومنها تفسير مفاتيح الغيب، للرازي (ت ٦٠٦ هـ)؛ تفسير روح المعاني، للآلوسي؛ تفسير الكشاف، للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)؛ ومجمع البيان، للطبرسي (ت ١٢٧٠هـ)، الآيات.

﴿فَعَسَىٰ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.[١]

العمارة في معاجم اللغة:

من الفعل عَمَرَ يَعمُرُ عَمراً.. وـ المنزلُ بأهله: كان مسكوناً بهم. فهو عامر. وـ اللهُ فلاناً: أبقاه وأطال حياته. وـ فلانٌ الدارَ: بناها. فهي معمورة. وـ القومُ المكانَ: سكنوه، فهو معمور. ويقال: عمر اللهُ بك منزلك. وـ المالُ عُموراً، وعُمْرَاناً: أحسن القيام عليه. فهو عامر.

و عَمُرَ المنزلَ: جعله آهلاً. ويقال: عمَّرَ اللهُ بك منزلك. و- الأرضَ: بنى عليها وأهَّلها... ويقال: عَمَرَ اللهُ بكَ مَنْزِلَك يَعْمُرُه عِمَارَةً بالكَسْر وأعْمَرَهُ : جَعَله آهِلاً، فَعَمَرَ المنزلُ بأهله، صار مسكوناً بهم، فهو عامِرٌ، ويقال: عَمَرَ الرجلُ مالَهُ وبَيْتَه عَمَارَةً بالفتح وعُمورا بالضَّمّ وعُمْرَاناً كعُثْمانَ: لَزِمَهُ.. والعِمارة: نقيض الخراب.. وهي إما من العمارة التي هي حفظ المكان، وإما من العُمرة التي هي الزيارة، أو من قولهم عَمَرتُ بمكان كذا أي: أقمتُ به لأنه يُقال: عمرتُ المكان وعمرتُ بالمكان. والمَعمرُ: المسكن مادام عامراً بسكانه، يُقال: عمرتُهُ فَعَمَرَ فهو معمور ومنه: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾.[٢]

ومنه الاعتمار والعمرة: الزيارة التي فيها عِمارة الودِّ، وجُعل في

---

١. التوبة : ١٧ ـ ١٨.

٢. الطور : ٤ .

الشريعة للقصد المخصوص.

وتأتي بمعنى العبادة.. ومنه العُمْرُ بالضَّمّ: المَسْجد والبَيعَةُ والكَنيسَة سُمِّيَتْ باسْمِ المَصْدَر؛ لأَنَّه يُعْمَرُ فيها أي يُعْبَد..

قال الزمخشري: ... ولكن عَمَر اللهَ إذا عبده وعَمَر فلانٌ ركعتين إذا صلاهما وهو يَعْمُر ربَّه أي يصلي ويصوم... وحكى ابن الأَعرابي عَمَر ربَّه عبَدَه وإنه لعَامِرٌ لربّه أي عابدٌ.

وحكى اللحياني عن الكسائي تركته يَعمرُ ربَّه أي يعبده يصلي ويصوم.

ابن الأَعرابي، يقال: رجل عَمّار إذا كان كثيرَ الصلاة كثير الصيام ورجل عَمّار وهو الرجل القوي الإيمان الثابت في أمره الثَّخينُ الوَرَعِ مأخوذ من العَمِير وهو الثوب الصفيق النسجِ القويُّ الغزلِ الصبور على العمل..

ابن عاشور: (العمارة) صناعة التعمير، أي القيام على تعمير شيء، بالإصلاح والحراسة ونحو ذلك...[١]

والذي تميل له النفس وتطمئن بمراده من خلال اللغة ومن خلال الآيات التي ذكرت عمارة المساجد، وأقوال المفسرين والرواة هو أنَّ

---

١. انظر تاج العروس؛ لسان العرب؛ والمعجم الوسيط: عَمَرَ.، مفردات الراغب ٥٨٦-٥٨٧: العِمارة؛ التحرير والتنوير: الآيتان.

عمارتها بطاعته تعالى، وطاعته تقع بوفرة النفوس فيها للعبادة المرضية من قبله تعالى؛ ولهذا نلاحظ أنَّ الله تعالى من ضمن ما أقسم به في سورة الطور هو البيت المعمور، أي المعمور بالملائكة، ذاك الذي في السماء؛ تعمره الملائكة للعبادة،.. **يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلّون فيه**، أوهو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة تعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة عن ابن عباس ومجاهد. وروي أيضاً عن أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبداً».

وفي رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «البيت المعمور في السماء الدنيا... يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلّون فيه فيفعلون ثم لا يعودون إليه أبداً».

وقيل: البيت المعمور هو الكعبة البيت الحرام معمور بالحج والعمرة عن الحسن وهو أول مسجد وضع للعبادة في الأرض..

أو هو الكعبة البيت الحرام أول مسجد وضع للعبادة في الأرض، وهو معمور بالحج والعمرة..

ابن عاشور: والبيت المعمور، عن الحسن أنه الكعبة وهذا الأنسب بعطفه على الطور، ووصفه بـــ ﴿**المعمور**﴾، لأنه لا يخلو من طائف به، وعمران الكعبة هو عمرانها بالطائفين قال تعالى: ﴿**إنما يعمر مساجد الله**

من آمن بالله واليوم الآخر﴾.[١]

وسواء أكان في السماء أم في الأرض، فما يهمنا هو تسميته (المعمور) بما اكتظّ به من الملائكة أو الناس، وبهم يعمر، وأحسن ابن عاشور حين قال: ووصفه بـ ﴿**المعمور**﴾، لأنه لا يخلو من طائف به، وعمران الكعبة هو عمرانها بالطائفين.

فعمّار هذا البيت أو البيت الحرام أو المساجد؛ هم روّادها وزوّارها، يعبدون الله فيها، يتخذونها أماكن يذكرون اسم الله سبحانه فيها؛ لينالوا بها خيراً كثيراً، وقد شهد الله لعمّار المساجد بالإيمان حيث قال: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ**﴾. كما جاءت الروايات في مدحهم بعد تسميتها لهم (عمّار المساجد) منها:

عن أبي سعيد الخدري: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان».

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «.. إنما عمار المساجد هم أهل الله»...

وهذا الشوكاني في تفسيره يقول عن المراد بالعمارة:

إما المعنى الحقيقي. أو المعنى المجازي وهو ملازمته والتعبد فيه، وكلاهما ليس للمشركين. أما الأول: فلأنه يستلزم المنّة على المسلمين

١. التوبة : ١٨ .

بعمارة مساجدهم. وأما الثاني: فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام. ومعنى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ**﴾، ما صحّ لهم وما استقام أن يفعلوا ذلك، و ﴿**عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ**﴾، حال: أي ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر، بإظهار ما هو كفر من نصب الأوثان والعبادة لها، وجعلها آلهة، فإنّ هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر، وإن أبوا ذلك بألسنتهم، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين: عمارة المساجد التي هي من شأن المؤمنين، والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من شأن من يتقرّب إلى الله بعمارة مساجده؟!

وقيل: المراد بهذه الشهادة قولهم في طوافهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك؛ وقيل: شهادتهم على أنفسهم بالكفر: أن اليهودي يقول هو يهودي، والنصراني يقول هو نصراني، والصابىء يقول هو صابىء، والمشرك يقول هو مشرك: ﴿**أُوْلَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**﴾، التي يفتخرون بها، ويظنون أنها من أعمال الخير: أي بطلت ولم يبق لها أثر ﴿**وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ**﴾، وفي هذه الجملة الإسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها.

ثم بيّن سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ**﴾، وفعل ما هو من لوازم الإيمان من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿**وَلَمْ يَخْشَ**﴾ أحداً ﴿**إِلاَّ ٱللَّهَ**﴾، فمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف، فهو الحقيق بعمارة المساجد

لا من كان خالياً منها أو من بعضها، واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيهاً بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداه مما افترضه الله على عباده؛ لأنّ كلّ ذلك من لوازم الإيمان،... ومن جوّز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما.

وفي قوله: ﴿فَعَسَىٰ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، حسم لأطماع الكفار في الانتفاع بأعمالهم، فإنّ الموصوفين بتلك الصفات إذا كان اهتداؤهم مرجوّاً فقط، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشيء من تلك الصفات؟! وقيل: «عسى» من الله واجبة. وقيل: هي بمعنى خليق، أي فخليق أن يكونوا من المهتدين. وقيل: إنّ الرجاء راجع إلى العباد.[1]

يقول الشيخ الطبرسي: واختلف في العمارة للمسجد. فقيل: هي بدخوله ونزوله كما يقال: فلان يعمر مجلس فلان إذا أكثر غشيانه؛ لأنّ المسجد تكون عمارته بطاعة الله وعبادته، وقيل: هي باستصلاحه ورَمِّ مااسترم منه؛ لأنه إنما يعمر للعبادة عن الجبائي. وقيل: هي بأن يكونوا من أهله أي لا ينبغي أن يترك المشركون فيكونوا أهل المسجد الحرام عن الحسن.

يقول ابن عاشور: وعمر المساجد: العبادةُ فيها؛ لأنّها إنّما وضعت للعبادة، فعَمْرها بمن يحلّ فيها من المتعبّدين، ومن ذلك اشتقّت العُمرة،

---

١ تفسير فتح القدير، الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) وانظر ابن كثير في تفسيره .

والمعنى: ما يحقّ للمشركين أن يعبدوا الله في مساجد الله. وإناطة هذا النفي بهم بوصف كونهم مشركين: إيماء إلى أنّ الشرك موجب لحرمانهم من عمارة مساجد الله..

ويقول أبو حيان: يعمر المسجد أي يكثر غشيانه، أو رفع بنائه، وإصلاح ما تهدّم منه، أو التعبد فيه، والطواف به.

المساجد

لقد أطلق الله سبحانه وتعالى المساجد في هاتين الآيتين ١٧ــ ١٨ التوبة، في حين أنَّ المقصود فيهما المسجد الحرام؛ إما بدلالة الآية التالية: ﴿**وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**﴾.

يقول الزمخشري: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ**﴾، ما صحّ لهم ما استقام ﴿**أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ**﴾، يعني المسجد الحرام، لقوله: ﴿**وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**﴾.

أولعلّه أراد بهذا الإطلاق مسجداً واحداً من باب إطلاق العموم وإرادة الخصوص، أو لأنه أعمُّ والخاص يدخل تحته؛ فعامره كعامر جميع المساجد. قال الفراء: العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم: فلان كثير الدرهم وبالعكس، كقولهم فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس إلاّ ملكاً واحداً.

أو لعلّه عبر عن المسجد المقصود بالجمع إما تعظيماً له، وإما قراءةً كما يذكرها الزمخشري حيث يقول:

وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان:

أحدهما: أن يراد المسجد الحرام، وإنما قيل مساجد؛ لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها؛ فعامره كعامر جميع المساجد، ولأن كل بقعة منه مسجد.

والثاني: أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا؛ لأن يعمروا جنسها، دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته وهو آكد، لأنّ طريقته طريقة الكناية، كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك.

ويقول الطبري: واختلفت القرّاء في قراءة قوله: ﴿**ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ**﴾، فقرأ ذلك عامة قرّاء أهل المدينة والكوفة: ﴿**مَساجِدَ اللهِ**﴾ على الجمع. وقرأ ذلك بعض المكيين والبصريين: «مَسْجدَ اللهِ» على التوحيد، بمعنى المسجد الحرام. وهم جميعاً مجمعون على قراءة قوله: ﴿**مَساجِدَ اللهِ**﴾ على الجمع، لأنه إذا قرىء كذلك احتمل معنى الواحد والجمع، لأن العرب قد تذهب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد، كقولهم: عليه ثوب أخلاق.

وحول المراد من المساجد، يقول ابن عاشور: و ﴿**مَساجد الله**﴾، مواضع عبادته بالسجود والركوع: المراد المسجدُ الحرام وما يتبعه من

المسعى، وعرفةُ، والمشعرُ الحرام، والجَمَرات، والمَنْحر من منى.[١]

يقول ابن كثير: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ: مسجد الله، فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسسه خليل الرحمن...

القرطبي:... لأنه أعم والخاص يدخل تحت العام. وقد يحتمل أن يُراد بقراءة الجمع المسجد الحرام خاصّة. وهذا جائز فيما كان من أسماء الجنس؛ كما يُقال: فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلاَّ فرساً.

والقراءة «مساجد» أصوب؛ لأنه يحتمل المعنيين. وقد أجمعوا على قراءة قوله: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ**﴾ على الجمع؛ قاله النحاس: وقال الحسن: إنما قال: مساجد وهو المسجد الحرام؛ لأنه قِبلة المساجد كلّها وإمامُها. وإن ذكر الشيخ الطبرسي: لا ينبغي للمشركين أن يكونوا قواماً على عمارة مساجد الله ومتولين لأمرها، وينبغي أن يعمرها المسلمون. وقيل: إنّ المراد بذلك المسجد الحرام خاصة. وقيل: هي عامة في جميع المساجد.[٢]

---

١. انظر تفسير الطبري والزمخشري ومجمع البيان. تفسير البحر المحيط، أبوحيان (ت ٧٥٤ هـ)؛ والتحرير والتنوير؛ وغيرها.

٢. انظر الكشاف؛ جامع البيان في تفسير القرآن؛ تفسير القرآن الكريم؛ الجامع لأحكام القرآن؛ مجمع البيان: الآيتان.

السقاية والعمارة

ذكرنا معنى العمارة لغةً، أما السقاية، فهي من سَقَى، يسقي سقيًا، ومنه السقي: معروف والاسم السُقيا، بالضم، وسقاه الله الغيث أسقاه. وقد جمعهما لبيد في قوله:

سقى قومي بني مجد وأسقى	نميراً والقبائل من هلال

وجاءت في التنزيل العزيز مرات، منها:

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.

السِّقَايَةُ: مَوْضِع السَّقْيَ.

السِّقَايَةُ: صاع، إناءٌ يُسقى به وقد يُكال به.

وسِقَايَةُ الحاجّ: سَقْيُهُمُ الماءَ ينبذ فيه الزَّبيب، وكانت من مآثر قريش.

ابن عاشور: (السقاية) صيغة للصناعة، أي صناعة السقي، وهي السقي من ماء زمزم، ولذلك أضيفت السقاية إلى الحاج.

الشيخ الطبرسي: السِّقاية آلة تتخذ لسَقي الماء والسِّقاية مصدر كالسَقْي أيضاً. وقيل: إنهم كانوا يسقون الحجيج الماء والشراب وبيت البئر سقاية أيضاً.[١]

---

١. انظر لسان العرب لابن منظور ، والتحرير والتنوير ، ومجمع البيان : الآية .

فالسقاية والعمارة مما تفاخروا به في الجاهلية، وهو أي التفاخر هذا وإن رفضه التنزيل العزيز، لكنه يدلُّ على عظمة البيت الحرام وقدسيته ومكانته فيهم حتى مع كونهم مشركين؛ ولهذا راحوا يتنافسون في خدمته، ويتفاضلون فيها، وراحوا أيضاً يتفاخرون بأعمالهم الأخرى من سدانة البيت ومن حجابة ورفادة ويتطاولون بها على المسلمين، وأنَّ منزلة ما يعملون ووجاهته لكبيرة، وكأنّهم يقولون للمسلمين: تكفينا عن الإيمان بدينكم وعن هجرتكم وجهادكم، أو تجعلنا وإياكم سواء.. تظهر هذه المزاعم منهم واضحةً حين بلغ بهم الأمر أنَّ ما يقومون به من خدمة البيت والحجيج كعملِ مَن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيله...!!

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ ٱللهِ وَٱللهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾.[1]

حيث جاء ذلك التفاخر على ألسنة بعضهم كطلحة بن شيبة حين قال : أنا صاحب البيت وبيدي مفاتحه ولو أشاء بتُّ فيه .. أو أوتيت عمارة المسجد الحرام..

وعلى لسان العباس بن عبد المطلب حين قال: أنا صاحب السقاية والقائم عليها.. أو أنا أعمر المسجد الحرام وأسقي حاج بيت الله.. أو حين

---

١. التوبة : ١٩ .

عيّره أناس من المهاجرين والأنصار بالكفر وقطيعة الرحم، أجابهم: مالكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا.. فسألوه: وهل لكم من محاسن؟ قال: نعم، والله لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفكّ العاني (الأسير وكلّ من ذلّ واستكان وخضع)..

أو أن مماراة جرت بين العباس وعلي بن أبي طالب ببدر، وأن عليّاً عَيَّر العباس بالكفر وقطيعة الرحم، فقال العباس: «ما لكم لا تذكرون محاسننا إنّا لَنَعْمُر مسجد الله ونحجب الكعبة ونسقي الحاج».

وروي أنّ المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟

فقالت لهم اليهود: أنتم أفضل!

الطبري: عن ابن عباس قوله: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الحاجّ...**﴾ إلى قوله: ﴿**الظَّالِمِينَ**﴾، وذلك أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره. فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين؛ ﴿**قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ على أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ**﴾. يعني أنهم يستكبرون بالحرم، وقال: «به سامراً» لأنهم كانوا يسمرون ويهجرون القرآن والنبيّ ﷺ فخير الإيمان بالله والجهاد مع نبيّ الله ﷺ على عمران المشركين البيت وقيامهم على السقاية. ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أن كانوا يعمرون بيته

ويخدمونه، قال الله: ﴿**لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة، فسماهم الله «ظالمين» بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئاً.

وفي موضع آخر قال: فتأويل الكلام إذن: أجعلتم أيها القوم سقاية الحاجّ، وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، لا يستوون هؤلاء وأولئك، ولا تعتدل أحوالهما عند الله ومنازلهما؛ لأن الله تعالى لا يقبل بغير الإيمان به وباليوم الآخر عملاً. ﴿**وَاللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾؛ يقول: والله لا يوفق لصالح الأعمال من كان به كافرا ولتوحيده جاحداً. ووضع الاسم موضع المصدر في قوله: ﴿**كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ**﴾، إذ كان معلوماً معناه، كما قال الشاعر:

لَعَمْرُكَ ما الفِتْيانُ أنْ تَنْبُتَ اللِّحَى
وَلَكِنَّما الفِتْيانُ كُلُّ فَتىً نَدِي

فجعل خبر الفتيان «أن»، وهو كما يقال: إنما السخاء حاتم والشعر زهير.

وحتى في الدائرة المسلمة حدّثتنا أسباب النزول وروت أنّه سرى هذا التوهّم إلى بعض المسلمين، حين انتاب عدداً منهم، فراحوا يتفاخرون بعمارة البيت الحرام وبخدمة حجيجه، وقد يفاضلون بين ذلك وبين الهجرة والجهاد، فقد روي أنّ العباس بعد إسلامه رام أن يقيم بمكة ويترك الهجرة لأجل الشغل بسقاية الحاجّ والزائِر؛ وأنّ عثمان بنَ طلحة رام مثل ذلك، للقيام بحجابة البيت.

فقد جاء أنَّ عليّاً عليه السلام قال للعباس: «يا عم ألا تهاجر وألا تلحق برسول الله؟

فقال: ألستُ في أفضل من الهجرة أعمر المسجد الحرام وأسقي حاج بيت الله...».

وفي خبر: «بينا شيبة والعباس يتفاخران إذا مرَّ بهما عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: بماذا تتفاخران؟!

فقال العباس: لقد أوتيتُ من الفضل ما لم يؤت أحد سقاية الحاج!

وقال شيبة: أوتيتُ عمارة المسجد الحرام!

فقال عليٌّ عليه السلام: استحييتُ لكما فقد أوتيتُ على صغري ما لم تؤتيا

فقالا: وما أوتيت يا عليُّ؟

قال: ضربتُ خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله.

فقام العباس مغضباً يجرُّ ذيله حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به عليٌّ؟

فقال: ادعوا لي عليّاً فدعي له، فقال:ما حملك على ما استقبلتَ به عمّك؟

فقال: يا رسول الله صدمته بالحقِّ، فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض، فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد إنَّ ربّك يقرأ عليك السلام ويقول: أُتل عليهم ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ**﴾، الآيات.

فقال العباس إنا قد رضينا ثلاث مرات...».

وروى الطبري والواحدي عن النعمان بن بشير، قال: كنتُ عند منبر رسول الله صلى الله عليه وآله في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: «ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلاَّ أنْ أسقي الحاج»؛ وقال آخر: «بل عمارة المسجد الحرام» وقال آخر: «بل الجهاد في سبيل الله خير ممّا قلتم»! فزجرهم عمر بن الخطاب وقال: «لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صُلِّيَتْ الجمعة دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وآله فاستفيتُه فيما اختلفتم فيه» قال: ففعل؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ...**﴾، إلى قوله: ﴿**وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾.

محمد بن كعب القرظي يقول: افتخر طلحة بن شيبة من بني عبدالدار، وعباس بن عبد المطلب، وعليّ بن أبي طالب، فقال طلحة: أنا صاحب البيت معي مفتاحه، لو أشاء بتّ فيه، وقال عباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بتّ في المسجد!

وقال عليّ عليه السلام: «ما أدري ما تقولان، لقد صليتُ إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وعِمارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ...**﴾، الآية كلها.

عن السديّ: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وعِمارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كمَنْ آمَنَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَجاهَد فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عنْد اللهِ...**﴾. قال: افتخر عليّ وعباس وشيبة بن عثمان، فقال العباس: أنا أفضلكم، أنا أسقي

حجاج بيت الله وقال شيبة: أنا أعمر مسجد الله!

وقال عليٌّ: أنا هاجرتُ مع رسول الله ﷺ، وأجاهد معه في سبيل الله فأنزل الله ١٩ـ٢١ التوبة: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وعِمارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كمَنْ آمَنَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَجاهَد فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عنْد اللهِ...**﴾ ... إلى ﴿**نَعِيمٌ مُقِيمٌ**﴾.

الشيخ الطبرسي: هذا استفهام معناه الإنكار أي لا تجعلوا، وفيه حذف يدلُّ الكلام عليه وتقديره أجعلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله حتى يكون مقابلة الشخص بالشخص أو يكون تقديره أجعلتم السقاية والعمارة كإيمان من آمن بالله حتى تكون مقابلة الفعل بالفعل وسقاية الحاج سقيهم الشراب.

قال الحسن: وكان نبيذ زبيب يسقون الحاج في الموسم بيَّن الله سبحانه أنه لا يقابل هذه الأشياء بالإيمان بالله ﴿**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾، وبالجهاد في سبيله فإنه لا مساواة بين الأمرين ﴿**لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ**﴾، في الفضل والثواب: ﴿**وَاللهُ لاَ يَهْدِى**﴾ إلى طريق ثوابه ﴿**الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾، كما يهدي إليه من كان عارفاً به فاعلاً لطاعته مجتنباً لمعصيته..

يقول الزمخشري: والمعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يسوي بينهم. وجعل تسويتهم ظلماً

بعد ظلمهم بالكفر...[١]

إذن، فالذي نستفيده أنَّ عمارة المسجد الحرام بالذات كما المساجد الأخرى ودور العبادة وبيوتها، لا فقط ببنائها وتزيينها وزخرفتها، وإن كان هذا أمراً جيداً وممدوحاً، ويُثاب عليه القائمون به مع شرط إيمانهم، إلا أنَّ الأهم منه عمارتها بإبعاد وإذهاب الدنس والشرك عنها، وبتهيئتها للقلوب المؤمنة، وبتطهيرها من الظلم والتجاوز والاعتداء على قدسيتها ودورها ووظيفتها في حياة الإنسان المسلم، وبأن تكون أبوابها مشرعةً للناس، وبدعوتهم إليها، وترغيبهم لزيارتها بالتيسير والانفتاح عليهم، فبهم يتمُّ ذكر الله، وبهم يُقام شرعه، وبهم تُؤدى مناسكه فيها،.. فإذا كان هؤلاء مطرودين منه مصدودين عنه، تعوّق حركتهم نحوه؛ فأيُّ عمارة هذه؟! وأيُّ ولاية عليها يعطّل فيها ذكر الله وعباداته ومناسكه؟! بل أيُّ خراب لها أخطر وأعظم من هذا وما يشبهه؟!

وخير دليل على ذلك هو أنَّ السماء أعلنتها صريحةً أن ميّزت بين طائفتين:

طائفة لكفرها؛ لا نصيب لها في العمارة وإن ادّعت وبذلت وأنفقت وعملت وتفاخرت وطبّلت وزمّرت.. فقد حبط عملها، وخلدت في النار..

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ ٱللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

---

١. جامع البيان في تفسير القرآن؛ مجمع البيان؛ الكشاف : الآية .

بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

وطائفة لإيمانها..؛ حظيت بشرف تلك العمارة، ونالت اعتراف السماء بها وثناءها عليها: **﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَءَاتَىٰ ٱلزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ ٱللهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾**.

ثمَّ نزلت الآية المباركة لتحسم كلَّ ذلك ولتضع الأمور في موازينها الصحيحة، حين تولّت السماء ردَّ مزاعم أولئك وهؤلاء، استنكاراً لأمانيّهم وتوبيخاً لهم، مبيّنةً لهم وللجميع أنَّ الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد والهجرة في سبيله، لا في الذي افتخروا به من سدانة البيت الحرام وعمارته وسقاية الحجيج... وبأنه ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة متعبدات الله تعالى مع الكفر به وبعبادته.. ولهذا ابتدأت الآية بالاستفهام للإنكار: **﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ...﴾** وانتهت بقولها: **﴿وَاللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**.

يقول سيد قطب:... وهنا ينكر السياق على المشركين أن يكون لهم الحقُّ في أن يعمروا بيوت الله، فهو حقٌّ خالص للمؤمنين بالله، القائمين بفرائضه؛ وما كانت عمارة البيت في الجاهلية، وسقاية الحاج؛ لتغير من هذه القاعدة، وهو أمر مستنكر منذ الابتداء، ليس له مبرر؛ لأنه مخالف لطبائع الأشياء.

إنَّ بيوت الله خالصة لله، لا يذكر فيها إلا اسمه، ولا يدعى معه فيها أحد غيره، فكيف يعمرها من لا يعمر التوحيد قلوبهم، ومن يدعون مع

الله شركاء، ومن يشهدون على أنفسهم بالكفر شهادة الواقع الذي لا يملكون إنكاره، ولا يسعهم إلاّ إقراره؟!

﴿**أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**﴾، فهي باطلة أصلاً، ومنها عمارة بيت الله التي لا تقوم إلاّ على قاعدة من توحيد الله...

﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ**﴾.

والنصُّ على خشية الله وحده دون سواه بعد شرطي الإيمان الباطن والعمل الظاهر، لا يجيء نافلة، فلابدَّ من التجرد لله، ولابدَّ من التخلص من كلّ ظلّ للشرك في الشعور أو السلوك؛ وخشية أحد غير الله لون من الشرك الخفي ينبه إليه النصّ قصداً في هذا الموضع؛ ليتمحض الاعتقاد والعمل كله لله. وعندئذ يستحق المؤمنون أن يعمروا مساجد الله، ويستحقون أن يرجوا الهداية من الله:

﴿**فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾.

فإنما يتوجه القلب وتعمل الجوارح، ثم يكافئ الله على التوجه والعمل بالهداية والوصول والنجاح.

هذه هي القاعدة في استحقاق عمارة بيوت الله وفي تقويم العبادات والشعائر على السواء يبينها الله للمسلمين والمشركين...[1]

ثم جاءت الآية الثالثة متسائلةً مستنكرةً موبخةً لهم حاسمةً للموقف،

---

١. في ظلال القرآن : الآيتان .

وقد أطاحت بكلّ آمالهم وما يزعمون، ولم تغن عنهم أعمالهم عمارة كانت أوسقاية شيئاً:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؟![1]

يقول سيد قطب: فما يجوز أن يسوى الذين كانوا يعمرون الكعبة ويسقون الحجيج في الجاهلية، وعقيدتهم ليست خالصة لله، ولا نصيب لهم من عمل أو جهاد، لا يجوز أن يسوى هؤلاء- لمجرد عمارتهم للبيت وخدمتهم للحجيج- بالذين آمنوا إيماناً صحيحاً وجاهدوا في سبيل الله وإعلاء كلمته:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾؟

﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ﴾.

وميزان الله هو الميزان وتقديره هو التقدير.

﴿وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

المشركين الذين لا يدينون دين الحق، ولا يخلصون عقيدتهم من الشرك، ولو كانوا يعمرون البيت ويسقون الحجيج...[2]

إذن ﴿وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، أولئك الذين ظلموا أنفسهم

---

١. التوبة : ١٩.

٢. في ظلال القرآن : الآيات .

بكفرهم، وبمعاداة الرسول عليه الصلاة والسلام، وظلموا المسجد الحرام، فإنه تعالى خلقه ليكون موضعاً لعبادة الله تعالى، وأمر بتطهيره، فجعلوه موضعاً لعبادة الأوثان، ومنعوا محبّيه، وحالوا بينه وبين زوّاره المسلمين...

وسيأتينا كلام نافع حول ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ...**﴾[1]

وقبل ذلك لابدَّ من معرفة هذا المنع الذي سمّاه التنزيل العزيز «الصدّ».

ظاهرة الصد:

إنَّ من أقبح الأفعال التي تعرّضت وتتعرض لها اليوم دور العبادة، خاصة المساجد الثلاثة الكبرى وهي الأفضل عند الله تعالى: المسجد الحرام في مكة المكرمة، والمسجد النبويّ في المدينة المنورة، والمسجد الأقصى في فلسطين (ظاهرة الصدّ) التي طالما لوّح بها أو باشرها من يتولون إدارة الحرم المكي، سواء أكانوا مشركي مكة في العصر الإسلامي الأول، أو مسلمي مكة فيما بعده من العصور، وأكثر الذين كانوا ضحية هذا الفعل هم الناس الأبرياء حين يحرمون من أداء مناسكهم وشعائر حجّهم وعمرتهم؛ بلا ذنب اقترفوه، إلاّ لأنهم أتباع معتقد أو مذهب، أو لأنهم رعايا قبيلة أو كيان أو دولة، اختلفت مواقفها وتعارضت آراؤها مع ولاة الحرم المكي..، وأحياناً بسبب نزوة حاكم، أو هوى أمير من أمراء

---

١. البقرة : ١١٤.

هذا الحرم..، وكان الواجب أن يبقى الحرم المكي وكذا الحرم المدني خارجَ ذلك كلّه، وبعيداً عن أن يُتخذ منهما مادةً دسمةً لأي لعبة سياسية، أو لتحقيق مآرب سياسية وأخرى اقتصادية وإعلامية.. وأن يكونا في منأى عن أي دائرة ضغط أو بغض أو عصبية أو مذهبية..؛ وإلاّ فالعلاقات بين الدول بين مدٍّ وجزر، تتوافق مرّةً وتختلف أخرى، وعندها سيبقى أداء الحج والعمرة مرهوناً بها، وبحالة التوافق إن وجدت وإلاّ حُرم الناسُ من أدائهما.. إنّه لعمل قبيح يوجه ضدَّ مَن؟! ضدَّ آلاف من المسلمين، ولنا أن نتساءل: أيّ فرق بين من يزعمون أنهم خدمة الحرمين المكي والمدني وبين ما يفعله أعداء الإسلام التقليديون في تحجيرهم على المسجد الأقصى، والحيلولة بينه وبين محبّيه ومريديه من مسلمين ونصارى، وفتحه لمن يُوافقهم ولمن يرغبون؟!

وفعلة الصدِّ هذه ليست مستغربةً حين تقع من قبل المحتل الإسرائيلي، الذي يمنع المسلمين عن المسجد الأقصى، لكنه أمر لا فقط مستغرب بل يحزُّ بالنفوس ويوجع القلوب حين يمارس في الساحة المسلمة من قبل ولاة الحرم المكي، الذين ينبغي بل يجب أن يكونوا أُمناءَ على هذه المسؤولية الشرعية، ويؤدّوها وفق موازين الدّين الحنيف..، ولكن أنّى لهم هذا وهي لا يصلح لها إلاّ المتقون كما هو نصُّ الآية ٣٨ من سورة الأنفال؟!

إنَّ عمارة المسجد الحرام ماديّاً ومعنويّاً، تعني أموراً غاية في

الأهمية، فالعمارة التي تحدّث عنها التنزيل العزيز فرفضها من أُناس راحوا يتفاخرون بها ويتزايدون بها على المؤمنين، وحصرها بالمؤمنين، لا تعني البناء فقط، بل العبادة، ولزوم دورها، وإدارتها، وعدم منع الناس عنها وهو الأهم؛ وإلاّ فإنّ المساجد عمّرت بناءً ولم تُعمّر عبادةً..!

ثمَّ إنَّ البناء قد يُقيمه المشرك لمنافع دنيوية يرجوها، وفي حسابات الله تعالى قد أبطل عمله هذا؛ لأنَّ المشركين شهدوا على أنفسهم بالكفر أولاً، ولأنهم لا يقيمون عمارتها وفق ما يريده الله تعالى، وبالتالي فهم ليسوا جديرين بإنشائها أو تجديد بنائها، ولا حتى ولايتها؛ لأنَّ هذه المهام لابدَّ أن تكون من قبل المؤمنين المتّقين، وأن لا يمنع الناس عنها؛ كما هو نصُّ الآيات..؛ ولهذا لم تكتفِ السماءُ برفع قواعد البيت ـ البناء الأول للبيت الحرام ـ من قبل كلٍّ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.[1]

وهما النبيّان الصالحان حتى أمرتهما ﴿**...أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ**﴾.[2]

و أمرت إبراهيم بالأذان ﴿**وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۞ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ**

---

١. البقرة : ١٢٧.

٢. البقرة : ١٢٥.

فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۞ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۞ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ...﴾.[1]

ليكتمل البناء وتتمّ العمارة الحقّة، وحينئذ يتقبلها الله بقبول حسن.

فالعمارة للمسجد الحرام بناءً و ولايةً حتى تكتمل وتدخل دائرة العمل الصالح، وتؤتي ثمارها، لابدَّ أن تخضع لقانون ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ**﴾، كما أنَّ صلاحها وبقاءها وديمومتها مرهون بدورها المتمثل بدعوة الناس استجابةً لأذان إبراهيم عليه السلام وتنفيذاً له بأن تُشرع أبواب الحرم المكي لأولئك الوافدين جميعاً، وأن يُستقطبوا من كلِّ مكان، بإزاحة أي مانع سياسيّاً كان أو إداريّاً أو أمنيّاً أو ماليّاً أو خدميّاً أو إعلاميّاً؛ يحول دون تواصلهم جميعاً مع هذا المسجد الحرام ومواقع المناسك، التي لابدَّ أن تبقى حيّةً نشطةً مكتظةً بهم في فرض أو مستحب، في حج وعمرة أو زيارة؛ بلا فارق بينهم أو تمييز من مذهب أو قوميّة أو ثقافة أو لون أو موقف حتى وإن كان مخالفاً بل ومعارضاً لمن أُنيطت بهم مسؤولية إدارة موسم الحج، وليس لأحد عرقلة حجّهم وتأدية عباداتهم في بيت الله الحرام وفي جواره.. بل الأجدر بأهل مكة أن يُحسنوا ضيافتهم، وأن يضعوا بين أيدي هؤلاء الحجاج كلَّ ما يُيسر لهم حركتهم وسكنهم وتنقلاتهم حتى يأمنوا ويؤدوا عباداتهم ومناسكهم بكامل

---

١. الحج ٢٧-٣٠.

حريتهم وإرادتهم، بعيداً عن التهاون في خدمتهم، فضلاً عما يسبب أذيتهم ومضايقتهم، فهم ضيوف الله تعالى، وهم دعوة أذان نبيّه إبراهيم الخليل، وهم الذين طُهر البيت من أجلهم، وشرعت المناسك لهم، وجعلها جميعاً تؤدى في أرض حرام وفي زمن حرام؛ يأمن فيهما الناس من البغي والاعتداء والتجاوز عليهم، ويجدون فيهما حلاوة الأمن والأمان وواحة للسلام ومكاناً للإطمئنان..، وبالتالي يدخل كلُّ ذلك في تعظيم حرمات الله تعالى:

﴿ذٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ...﴾.[1]

الزمخشري: والحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها يحتمل أن يكون عاماً في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصاً فيما يتعلق بالحج، وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس: الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمشعر الحرام، والمحرم حتى يحلّ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ أي فالتعظيم خير له. ومعنى التعظيم: العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها..

الرازي: وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ يدل على الثواب المدخر؛ لأنه لا يقال عند ربّه فيما قد حصل من الخيرات، قال الأصم: فهو خير له من التهاون بذلك...

---

١. الحج : ٣٠ .

ابن عاشور:... والكلام موجّه إلى المسلمين تنبيهاً لهم على أنّ تلك الحرمات لم يعطل الإسلام حرمتَها، فيكون الانتقال من غرض إلى غرض ومن مخاطب إلى مخاطب آخر. فإنّ المسلمين كانوا يعتمرون ويحجون قبل إيجاب الحجّ عليهم، أي قبل فتح مكة.

والحُرمات: جمع حُرُمة ـ بضمتين ـ ، وهي ما يجب احترامه.

والاحترام:اعتبار الشيء ذَا حَرَم، كناية عن عدم الدخول فيه. أي عدم انتهاكه بمخالفة أمر الله في شأنه، والحُرمات يشمل كلّ ما أوصَى الله بتعظيم أمره فتشمل مناسك الحج كلها...[1]

إذن؛ فالعمارة لا فقط ببناء البيت الحرام الذي لابدَّ هو الآخر أن يتمَّ بأيد متوضئة، وبقلوب عامرة هي الأخرى بموازين العقيدة الصالحة، التي أساسها التوحيد لا الكفر بالله أو الشرك به، أو التجاوز على عباده؛ بل العمارة تتحقّق وتسمو بتوافد الناس عليه وتسهيل ذلك من قبل المسؤولين، وحينئذ تتمُّ عمارته التي يريدها الله تعالى. فالبناء وحده غير كاف، إنما وجود النفوس المتعبدة والتي بدونها لا تعمر المساجد، وبالذات المسجد الحرام؛ فحين يُبعد الطائفون عنه، وحين يمنع العاكفون عنه، وحين يُصدّ الركّع السجود عن أداء صلواتهم فيه، وحين يُخرج أهله منه، فأي

١. انظر تفسير الكشاف للزمخشري ، وذكره الرازي عنه في تفسيره مفاتيح الغيب ، التفسير الكبير، والتحرير والتنوير : الآية .

عمارة هذه للمسجد الحرام، وأي ولاية صالحة له، تلك التي تُخليه عن قلوبٍ أحبّ الله تعالى تواجدها فيه، وعن نفوس أحبّ أن لا يخلو مسجده المبارك منها، وهي آمنة مطمئنة تعبده فيه؟!

لأنّ عمارة المسجد بإقامة الجماعات وأنشطتها الشرعية فيها.. فإذا صُدّت هذه الجماعات أو ضعفت بأن حيل بينها وبين المسجد الحرام بأي سبب غير شرعيٍّ، فلا عمارة ولا ولاية..

وبعد هذه المقدمة لابدَّ من التعرف على مفردة (الصدّ) هذه في اللغة وفي التنزيل العزيز، وإن لم يختلف معناها فيهما، ومع هذا سنشير إليهما، ولو بإيجاز:

فالصدُّ لغةً: من الفعل صدَّ، وصدد، صدَّ عنه يصُدُّ صدًّا وصدودًا، ولها عدّة معان، وأهمها:

الإعراض؛ فصدَّ عنه.. صدَّ فلانٌ عن فعل كذا: أعرض عن الفعل، وصدَّ منه يصِدُّ صدًّا: ضجَّ وأعرض، وفي التنزيل العزيز: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**﴾.[1]

المنع؛ فصدَّ فلاناً عن كذا يصُدُّ صدًّا: منعه وصرَفه؛ وفي التنزيل العزيز: ﴿**فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ**﴾، وآيات أخرى يأتينا بعضها.

فهو صادٌّ من قوم صُدّاد، وهي صادَّة من نسوة صوادَّ.

---

١. الزخرف : ٥٧ .

وصدَّ يصُدُّ بضمِّ الصاد معناها المنع.

وصدَّ يصِدُّ بكسر الصاد معناها ضجَّ وأعرض.

إذن؛ فهو يأتي مرّةً من صدَّ يصُدُّ بالضم، وصدَّ يصِدُّ بالكسر، فبضمّ العين يكون لازماً ومتعدياً؛ فيقال: صدَّ يصُدُّ صدوداً، وصدَّ يصُدُّ صدَّاً، فإذا كان لازماً دلَّ على الامتناع والانصراف والعدول؛ يقال: صدَّ عن الأمر صدوداً، أي: امتنع عنه. وإذا كان متعدياً؛ دلَّ على المنع والصرف؛ يقال: صدَّه عن الأمر صدَّاً، أي: منعه منه. وإذا جاء على كسر العين فإنه يدلُّ على الضجِّ والعجِّ، يقال: صدَّ منه يصِدُّ صدَّاً: عجَّ وضجَّ.. وحملاً على هذا الأصل وهو العدول والمنع..، فقد جاءت عدّة مفردات مشتقة من هذه المادة، ولها معان متنوعة، ذكرتها معاجم اللغة، وهي نفسها في آيات قرآنية، عبر ألفاظها المشتقة منها، وبسياقات متعدّدة، والواردة في التنزيل العزيز أكثر من أربعين مرة...، نكتفي بما ذكره الراغب في مفرداته:

صدد: الصدود والصد قد يكون انصرافاً عن الشيء وامتناعاً نحو: ﴿**يَصِدُّوُنَ عَنْكَ صُدُوداً**﴾. وقد يكون صرفاً ومنعاً نحو: ﴿**وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ**﴾؛ ﴿**اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ**﴾؛ ﴿**وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**﴾؛ ﴿**قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**﴾؛ ﴿**وَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ**﴾؛ إلى غير ذلك من الآيات.

وقيل: صدّ يصدّ صدوداً وصدّ يصدّ صداً، والصدّ من الجبل ما يحول، والصديد ما حال بين اللحم والجلد من القيح وضرب مثلاً لمطعم

أهل النار، قال: ﴿...وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۞ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ...﴾.[1]

ومن المناسب أن أشير إلى أنَّ هذه المفردة (صدَّ وصدد ومشتقاتها) لم تستعمل في القرآن الكريم، إلاّ في الموقف السلبي، الذي تبنّته الفئات التالية، حين أسند إليها هذا الفعل:

النفس الأمارة بالسوء وبحبِّ الدنيا، ومن يعبد غير الله تعالى، والشيطان، والكفّار، والمنافقون؛ وسيلةً في رفضها لدوائر الإيمان، وإن كان معناها في اللغة أعمَّ من ذلك، وهو أمر ملفت حقًّا، وكأنها صفة رديئة، ووسيلة مذمومة لاذت بها تلك الجهات في ردِّها الدعوات السماوية، وكانت منهجاً سيّئاً، راحت السماء تصف به مواقف المناوئين لأنبيائها ولرسلها ولشرائعهم ولأتباعهم ولدور عباداتهم ومساجدهم... ولم تستعمل في الصدِّ أي المنع عن الكفر، باستثناء مجيئها في آية واحدة في الصدِّ عن الكفر (عبادة الآباء) على لسان الكفّار أنفسهم حينما خاطبوا الرسل وهي الآية: ١٠ طه:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَتِ وَٱلأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

---

١. إبراهيم : ١٦– ١٧؛ انظر مفردات الراغب، الأصفهاني؛ وتفسير وبيان مفردات القرآن، للحمصي .

وإلاّ باقي الآيات استعملت في الصدِّ عن الإيمان والهدى، وسبيل الله ورسله والمسجد الحرام والصلاة...

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ أَنَحْنُ صَدَدنَاكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ﴾.[١]

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.[٢]

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾.[٣]

﴿وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾.[٤]

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾.[٥]

﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.[٦]

﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾.[٧]

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ

---

١. سبأ : ٣٢ .
٢. النمل : ٤٣ .
٣. النمل : ٢٤ .
٤. العنكبوت : ٣٨ .
٥. النساء : ٥٥ .
٦. آل عمران : ٩٩ .
٧. النساء : ٦١ .

﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾

﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً﴾.[١]

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيداً﴾.[٢]

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾.[٣]

﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾.[٤]

﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾.[٥]

﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾.[٦]

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾.[٧]

﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾.[٨]

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾.[٩]

---

١. النساء : ١٦٠.

٢. النساء : ١٦٧.

٣. الأعراف : ٤٥ .

٤. الأعراف : ٨٦ .

٥. الأنفال : ٣٦ .

٦. الأنفال : ٤٧ .

٧. التوبة : ٩ .

٨. التوبة : ٣٤ .

٩. هود : ١٩.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وصدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾.[١]

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾.[٢]

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾.[٣]

﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾.[٤]

﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾.[٥]

هذا إضافةً إلى الآيات التالية التي أفردناها؛ لأنها مما تتحدث عنه هو الصدِّ عن المسجد الحرام، عنوان هذه المقالة.

ويعدُّ المنع والإعراض الأكثر وروداً لهذه المفردة في التنزيل العزيز، وأنّه أي الصدّ يدور على هذين المعنيين الأساسيين، وما جاءت من مشتقاته لا تخرج عنهما، وما يهمنا في هذه المقالة المعنى الثاني، وهو المنع، ونكتفي بما يتعلق منه بالمسجد الحرام، وإن كان المنع عن المسجد الحرام يعدُّ واحداً من المنع عن سبيل الله تعالى، التي جاءت فيه آيات عديدة تحمل مفردة الصدّ المذكورة، وقد ذكرناها، وهذه بعضها: ﴿**الَّذِينَ يَصُدُّونَ**

---

١. الرعد : ٣٣ .

٢. إبراهيم : ٣.

٣. النحل : ٨٨ .

٤. النحل : ٩٤ .

٥. طه : ١٦ .

﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾

عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾.[١] **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾**.[٢]

وقد جاءت مفردة (الصدّ) مقترنةً بمواضيع عديدة في التنزيل العزيز، كان منها وهو الأهم؛ اقترانها بسبيل الله صراحةً أو ضمناً في كثير من الآيات في خمسة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم، وفي عشرة مواضع من القرآن الكريم جاءت مقترنةً ضمناً بسبيل الله، فيما جاءت مرّتين مقترنةً صراحةً بموضوعين مهمّين جدّاً وهما: سبيل الله والمسجد الحرام؛ كما في الآيتين:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَأُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.[٣]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.[٤]

وثلاث مرّات اقترنت صراحةً بالمسجد الحرام وحده ؛ كما في

---

١. الأعراف : ٤٥ .

٢. الحج : ٢٥ .

٣ البقرة : ٢١٧ .

٤ الحج : ٢٥ .

الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ ٱللهِ وَلاَ ٱلشَّهْرَ ٱلْحَـرَامَ وَلاَ ٱلْهَـدْىَ وَلاَ ٱلْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ ٱلْبَيْـتَ ٱلْحَـرَامَ يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مِّـن رَّبِّهِـمْ وَرِضْـوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَٱتَّقُواْ ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.[١]

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ ٱللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.[٢]

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَـدْىَ مَعْكُوفـاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـاتٌ لَّـمْ تَعْلَمُـوهُمْ أَن تَطَئُـوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُـدْخِلَ ٱللهُ فِى رَحْمَتِـهِ مَـن يَشَـآءُ لَـوْ تَزَيَّلُـواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.[٣]

فهذه هي الآيات التي تتحدث عن الصدِّ عن المسجد الحرام، ولـئن جاء الصدُّ عن سبيل الله من أهل الشيطان وأهل الكتاب ومـن المنـافقين وغيرهم، فإنّ الصدَّ عن المسجد الحرام جاء من أهله مـن مشـركي مكـة بالذات، كما تلاحظ في الآيات الأربع التي ذكر فيها المسجد الحرام، الـذي أراده الله تعالى للناس جميعاً؛ قياماً ومثابةً وأمناً ومشروع هداية، منـذ أن

---

١. المائدة : ٢ .

٢. الأنفال : ٣٤ .

٣. الفتح : ٢٥ .

رفع قواعده نبيّا الله إبراهيمُ وابنُه إسماعيلُ عليهما السلام؛ لاحظ الآيات القرآنية التي ذكرته، ومنها:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً...﴾.[١]

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱلله غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾.[٢]

فهم فيه سواء، وأمر بتطهيره لهم دون نظر إلى موافق منهم لأهل مكة أو مخالف لهم، ماداموا مخاطبين بزيارته والاعتمار فيه؛ وبحجّه عند تحقّق شرط الاستطاعة فقط لكلِّ مكلف دون أن يكون هناك شرطُ توافق موقفه أو رأيه لموقف أو رأي من يتولّى المسجد الحرام..

الصدّ هو الضدُّ الأخطر:

فأهل مكة، أولئك الذين عُرفوا بشركهم وكفرهم وعنادهم، راحوا يصدون عن سبيل الله، المؤدي إلى حيث منابع الخير والحق والهداية والرشد والسداد، فمهنة المستكبرين أن يصدوا الناس عن الهدى إذ جاءهم، وأن يصرفوا الناس بعيداً عن سبيلٍ تحيي به القلوب، وتبيد به الأوهام، وتطهر به الأنفس من الشرك والأرجاس، ويُبعدها من الشهوات

---

١. البقرة : ١٢٥ .

٢. آل عمران : ٩٦-٩٧ .

والهوى، ويُنقذها من عبادة الجبت والطاغوت إلى عبادة الله وحده، ويجعلها مطيعةً لربٍّ عادلٍ حكيم رحيم...

فالصدُّ إنما هو صدٌّ عن ذلك كلّه، وبالتالي فهو صدام مع الحقّ والعدل بشكل صريح، وصدام واضح مع الفطرة السليمة والحياة الكريمة... وكذا هو الصدُّ عن المسجد الحرام، عن بيت الله الحرام، الذي يشكل مشروعاً كبيراً ومصداقاً واضحاً لسبيل الله، فهو الآخر يحمل تلك المضامين وغيرها؛ ولهذا يعدُّ الصدّ عنه أمراً خطيراً، فهو أقدس مكان اتخذته السماء، وأوكلت له أعظم عبادة وزيارة..

فالصدُّ عنه ضدٌّ بيّنٌ لإرادة السماء في تأسيس هذا البيت ﴿**الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ**﴾، خلقناه مستقراً ومنسكاً ومتعبداً للناس كلّهم؛ لم يُخصّ به بعضٌ دون بعض، فالناس فيه سواءٌ، سواءٌ فيه أهله أو غير أهله، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي البعيد عنه، فلا فرق بينهم في وروده، ولا ميزة لأحد على أحد في حقّانية دخوله، والتعبّد فيه، وأداء المناسك المفروضة وكذا المستحبة...

وهو الضدُّ البيّنُ لجعله ﴿**مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً**﴾، يجدون فيه راحتهم وأمانهم، وقد فقدوها في منازلهم وبلدانهم...

وهو الضدُّ البيّنُ لأفئدة طالما تمنّاها إبراهيمُ أن تحلَّ فيه، فراح يدعو ربَّه ﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ**﴾.

وهو الضدُّ البيّن لعهد الله الذي حملته هذه الآية: ﴿**وَعَهِدْنَا إِلَىَ**

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

وكذا فإنَّ الصدّ عنه يدخل أيضاً تحت ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ**﴾، وبالتالي ﴿**نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾.

وهو خلاف عمارته وبقائه قائماً حيًّا بالقلوب التي ترد عليه ﴿**مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾، وبالتالي فهو أي الصدّ مخالفة صريحة لدعوة إبراهيم ولأذانه المأمور به من السماء ولمنافع الناس، وهو عداءٌ لذكره سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۞ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا الله فِي أيام معلومات...**﴾.

من هذا وغيره يتّضح أنَّ الصدَّ مشروع خطير يقف على الجانب الآخر المضادّ لمشروع السماء ومؤسساتها في الأرض، فالسماء أرادت لهذا البيت أن يبقى عامراً بالناس، فيما الصدُّ عنه يريد إخلاءه منهم، أو تقليل من تواجد الناس وتوجههم إليه، فهو بلا شك عمل خطير، خصوصاً إذا أعدنا قراءة الآيات التي تتضمن هذه المفردة (الصدُّ) لوجدنا أنَّ المسجد عطف على سبيل الله ﴿**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**﴾. مما يُنبه إلى أنَّ هناك إقتراناً واضحاً بينهما، وأنّ الصدَّ عن الثاني لا يقلُّ خطورة وآثاراً عن الصدّ عن الأول، بل يساويه، وكيف لا يكون كذلك وبيته تعالى معلم من معالم سبيله ومحطة من محطات خيره وعطائه؟! مما يجعل هذا الفعل: الصدّ عن المسجد يترك نفس تلك الآثار الوخيمة التي يتركها حينما يتعرض للصدِّ عن سبيل الله تعالى بكلّ ما يحمله من أحكام

ومفاهيم، وبما يتركه من آثار على الدين وأهله، فإيصاد أبواب بيت الله الحرام بوجوه مريديه يترتب عليه لا فقط الإذاقة ﴿**مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾، بل هم لا يستحقون ولاية المسجد وليسوا جديرين بها، وكيف لا وقد فقدوا أهلية ذلك بفعلهم المعادي وهو الصدُّ، لاحظ الآية ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوۤاْ أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾، وبالتالي فإنّ أولياء المسجد هم المتقون حصراً ﴿**إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ ٱلْمُتَّقُونَ**﴾، دون غيرهم، فالذي يصدُّ فقد التقوى، التي تؤهله لأن يكون صاحب ولاية عليه.. ففي الوقت الذي يسجل لنا منطوق هذه الآية أنَّ ولاية هذا المسجد هم المتقون حصراً، يسجل لنا مفهومها أن لا ولاية لأولئك الصادّين عنه المانعين الناس من زيارته، المعوّقين عنه بمواقف سياسية مضادّةً أو بقوانين جائرة مانعةً أو بضرائب وأجور فادحة، أو بالتضييق على حرية الناس وحركتهم لأداء الشعائر المنضبة بأحكام الدين، أو بأي شكل يتحقق به عدم التيسير بل التعسير على روّاده وهم الطائفون والعاكفون والركع السجود، وهم الأفئدة التي كانت محور دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**﴾، ولم يكن هؤلاء يوماً متآمرين على البيت، أو مسيئين لحرمته أومتجاوزين عليها، أو معتدين على أنظمة فريضة الحج ومسيرتها، وما يحقق أمن الحجيج واستقرارهم وحريتهم.. فلماذا يحرمون ويمنعون منه؟

يجب أن يبقى البيت المبارك مفتوحاً لكلّ فؤاد يهوي إليه، ولكلّ

نفس تصبوا إليه، بعيداً عن أي أهواء ومصالح وخلافات وتجاذبات بين الدول والمؤسسات والأفراد مهما عظمت وتعسّر حلها.. وأن يبقى المسجد الحرام بعيداً عن أي ردود فعل أو ثارات أو كما تسمى المقابلة بالمثل، فيظلم مَنْ لا ذنب له، فقد جاءت هذه الآية ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾.[1]

ذكر الواحدي عن زيد بن أسلم سبب نزول الآية قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه بالحديبية حين صدّهم المشركون عن البيت، وقد اشتدّ ذلك عليهم، فمرّ بهم ناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: «نصدّ هؤلاء كما صدّنا أصحابهم، فأنزل الله الآية».

أن لا يحملكم بغض أولئك الصادّين لكم عن المسجد الحرام، أن تمنعوا هؤلاء عن المسجد الحرام وتعتدوا عليهم بجريرة أولئك، فهؤلاء لا ذنب لهم فلا تظلموهم، ولم تكتف الآية بنهيهم وتحذيرهم بل أمرت المسلمين بالتعاون على البرّ والتقوى، ونهتهم عن الإثم والعدوان، والآية تبين لنا كيف يكون الهوى سبباً في الصدّ عن المسجد الحرام، الذي هو واحد من سبل الله تعالى التي ارتضاها لعباده، سواء كان ذلك بالنصّ الصريح أو من خلال العلاقة السببية بين هوى النفس وما يسببه من

---

١. المائدة : ٢ .

أفعال وتصرفات تؤدي إلى الصّد..

فهوى النفس يعدُّ وأتباعه واحداً من طوائف راحت ترتكب الصدَّ سواء أكان عن سبيل الله تعالى أو عن المسجد الحرام، ومن خلال معرفة هذه الجهات التي وصفت الآياتُ القرآنيةُ فعلَها بالصدِّ، نضع أيدينا على أسبابه وما يُراد منه، فالطائفة التي كفرت بما أنزل الله تعالى من كتب وبما بعث من رسل وأنبياء؛ تجدها هي الصّادة عن سبيل الله وعن المسجد الحرام؛ كما أنَّ الكفر نفسه هو الذي يصدُّ عن الإيمان بالله تعالى، انظر هذه الآية: ﴿**وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾.[1]

يقول سيد قطب: «ثم يتدخل السياق القرآني لبيان ما كان قد منعها قبل ذلك من الإيمان بالله، وصدها عن الإسلام عندما جاءها كتاب سليمان، فقد نشأت في قوم كافرين، فصدها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه، وهي الشمس، كما جاء في أول القصة».

وتجد أيضاً الكفّار ينفقون أموالاً طائلة ويبذلون جهوداً كبيرة للصدِّ عن سبيل الله ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**﴾.[2]

وكذا كفّار مكة ومشركوها، وهم يعدّون أكثر الفئات صدّاً ـ حسب

---

١. النمل : ٤٣ .

٢. الأنفال : ٣٦ .

﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾

الآيات القرآنية ـ فهي أكثر من مجموع الآيات التي تناولت صدَّ النفس وصدَّ الشيطان وصدَّ أهل الكتاب والمنافقين مجتمعة؛ سواء أكان الصدُّ عن سبيل الله أو عن المسجد الحرام، فقد كان همّهم ـ إضافةً إلى صدّهم عن سبيل الله تعالى ـ أن يمنعوا المسلمين من دخول مكة، كما ذكرت ذلك الآيات القرآنية التالية، التي ذُكر فيها الصدُّ عن المسجد الحرام؛ وقد يراد به مكّة كلها مع الحرم حولها، ويعدُّ واحداً من أمور وصفت بأنها أكبر من القتال في الشهر الحرام، كما في الآية: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللهِ**﴾.[1]

﴿**هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...**﴾،[2] لقد كان الصدُّ عن المسجد الحرام أسلوباً ظالماً، يتّبعه كبارُ المشركين ضدَّ من يختلف معهم أو يعارضهم في العقيدة أو في التوجّه والموقف، فهذا أبو جهل زعيم المشركين وكبيرهم في مكة؛ استخدم من قبلُ التهديد بالقتل حين رأى الصحابي الجليل سعد بن معاذ في مكة يريد زيارة المسجد الحرام، وقع ذلك حين انطلق سعد إلى مكة معتمراً، فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة؛ لعلّي أن أطوف البيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، مَن هذا معك؟

---

١. البقرة : ٢١٧ .

٢. الفتح : ٢٥ .

فقال: هذا سعد.

فقال له أبوجهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً، وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنّك مع أبي صفوان ما رجعتَ إلى أهلك سالماً.

فقال له سعد ـ ورفع صوته عليه ـ: أما والله لئن منعتني هذا؛ لأمنعك ما هو أشدّ عليكم منه: طريقك على أهل المدينة.

والمعروف من مشركي مكة أنهم مَنَعُوا المسلمين بعد هجرتهم من زيارة البيت الحرام.

وهم أيضاً منعوا رسول الله ﷺ دخول مكة؛ فقال تعالى: ﴿**هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**﴾، وهم قريش كفار مكة، ومعنى: صدّهم عن المسجد الحرام: أن تطوفوا وتحلوا من عمرتكم ﴿**وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ**﴾، أي وصدوا الهدي وهي البدن التي ساقها رسول الله ﷺ معه وكانت سبعين بدنة حتى بلغ ذي الحليفة، فقلد البدن التي ساقها وأشعرها وأحرم بالعمرة حتى نزل بالحديبية ومنعه المشركون، وكان الصلح فلما تمَّ الصلح نحروا البدن فذلك قوله: ﴿**مَعْكُوفاً**﴾، أي محبوساً عن أن يبلغ محله أي منحره وهو حيث يحل نحره يعني مكة؛ لأن هدي العمرة لا يذبح إلاّ بمكة كما أنّ هدي الحج لا يذبح إلاّ بمنى...

يقول القرطبي في المسألة الأولى في قوله تعالى: ﴿**هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾،

يعني قريشاً، منعوكم دخول المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبيَّة حين أحرم النبيّ صلى الله عليه وآله مع أصحابه بعُمْرة، ومنعوا الهَدْيَ وحبسوه عن أن يبلغ مَحِلّه؛ وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنه حملتهم الأَنَفة ودعتهم حَمِيَّة الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دِيناً، فوبّخهم الله على ذلك وتوعّدهم عليه، وأدخل الأُنس على رسول الله صلى الله عليه وآله ببيانه ووعده...[1]

﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا...﴾.[2]

لقد كان لمشركي مكة هذه المواقف بنصٍّ التنزيل العزيز، لا بخبر أو رواية حتى يكون للشك والطعن مكان فيهما: **﴿... وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ...﴾** كانوا ينظرون إلى هذا الرباعيِّ الذي وصفه الله تعالى بأنه **﴿... أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ...﴾**. أنّه لا قيمة له، مقابل خطإٍ وقع من بعض الصحابة؛ القتال في الشهر الحرام، فتولّت السماء نفسها الردَّ عليهم في الآية المذكورة، وكشفت أعمالهم المنافية لسبيل الله ولمسجده المبارك و... ووصفتها بأنّها الأكبر.. ولقد أحسن عبد الله بن جحش إذ أنشد قائلاً:

---

١. انظر التفاسير ومنها مجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ والجامع لأحكام القرآن؛ الآية.
٢. البقرة : ٢١٧ .

تَعُدُّون قَتْلاً في الحرام عظيمةً ❁وأعظمُ منه لو يَرَى الرُّشدَ راشِدُ
صُدُودكُمُ عما يقول مُحمّدٌ ❁وكُفرٌ به واللهُ راءٍ وشاهدُ
وإخراجكم من مسجد الله أهله ❁لئلا يُرى للَّه في البيت ساجدُ
فإنّا وإنْ عيّرتمونا بقَتْله ❁وأرجفَ بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سَقَيْنا من ابنِ الحَضَرْميّ رماحنا ❁بنَخْلَةَ لّما أوْقَد الحَربَ واقدُ
دَماً وابنُ عبد الله عثمان بيننا ❁يُنازعه غُلٌّ من القِدِّ عانِدُ.[1]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ ...﴾؟!

حقّاً إنها لسنّة سيئة، يجب أن لا يتصف بها عاقل في حياته، وإن فعلها فلا عذر له، فهي خلق أهل الجاهلية ومشركيها، ولسوئها وخطورتها، وقفت منها السماء موقفاً شديداً... فحذاري للذين يصفون أنفسهم بأنهم ولاة الحرم المكي وخدمته، أن يسلكوا ما سلكه الكفار من قبلهم، الذين كانوا يبحثون عن أي حادث، أو خلاف مع أحد أو جماعة، أو عن خطإٍ قد يقع فيه مسلم؛ ليتخذوه مبرراً لصدِّ هم عن المسجد الحرام.. ولوكان ولاة الحرم اليوم أو خدمته ـ كما يزعمون ـ حقّاً حريصين عليه، وعلى عمارته؛ لما اختلقوا إفكاً حتى يمنعوا الناس عنه، ويصدوا الحجاج عن إتيانه، و يجعلوا من ذلك ورقة ضغط على أي دولة من دول العالم الإسلامي تأزمت علاقتهم السياسية معها، حين نجدهم وقد

---

١. انظر الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي : الآية .

أشهروا بوجه تلك الدولة المارقة بنظرهم وشعبها سلاحَ الحرمان من الحج والعمرة؛ لتحقيق مآرب سياسية ومصالح دنيوية وتوكيداً لوصايتهم الدينية على المسلمين كما يحلو لهم، والحقيقة إن هو إلاّ تنفيس حقدٍ دفين على الدين وكره لأهله ومؤسساته، و إنه لموقف جائر معادٍ لله تعالى، لا فقط يُشبه مواقف أولئك المشركين، بل لا أبالغ إن قلت: ينبثق عنها، ويستمدّ منها منهجه وقوته.. ألم يسأل هؤلاء الذين يمنعون من يريد حجَّ البيت الحرام، كيف يقع هذا التقليد منهم لأولئك الذين وصفهم الله تعالى بوصف كريه ﴿**هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾؟![1] أيرضون أن يكونوا هم وأولئك في فعلة الصدِّ سواء؟!

ولكن؛ وكما يظهر لنا أنَّ لمشركي مكة تاريخاً في أذى المؤمنين، ولهم مواقف عديدة تتناقض و مشروع السماء، وتتنافى وإرادته تعالى، وقد توارثها اليوم هؤلاء، وهم موآخذون عليها؛ ولا ينفعهم عمارة البيت الحرام، فعمارته اختصَّ بها المؤمنون دون غيرهم كما تحدثت الآيات أعلاه، ولا تنفعهم دعواهم ولاية الحرم المكي، بعد أن حسمتها السماء ﴿**وَمَا كَانُوا أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ ٱلْمُتَّقُونَ**﴾. وهؤلاء الذين يتّقون لا يظلمون ولا يصدون عن المسجد الحرام، ولا يمنعون طائفاً ولا مصلّياً ولا ساعياً عنه، فقوام أنشطته العبادية بهؤلاء الصالحين لا بغيرهم، بعد أن

---

١. الفتح : ٢٥ .

رُفعت قواعدُه وبُنيت جدرانُه وسُقفت بيدٍ مؤمنة صالحة لا بيدٍ مشركة معتدية آثمة، وهذا ما تريد السماء بقاءه لمساجدها؛ قواعد المؤمنين ومنازل العابدين وملاذ القانتين، وملاجئ التائبين والمستغفرين الله تعالى... فالبيت المبارك والمسجد الحرام ومناسك الحج والعمرة والزيارة يجب أن تبقى بعيدةً عن أي اختلاف أو تنازع مهما كان كبيراً أو خطيراً؛ وإلاّ فإنَّ منع الناس عنه، يؤدي إلى المنع عن ذكر الله تعالى، الذي من أجله وجدت هذه المساجد وتلك البيوت، والعمل في تخريبها بإخراج أهل الإيمان منها أو بصدّهم عنها.. أو بمنعها عن إقامة عبادة الله فيها كالصلاة والطاعة فيها على تعدد الأقوال في المراد من الصدّ أو المراد من تخريبها... وجميع هذا ومايشبهه يعدُّ عملاً لا فقط ظالماً وتجاوزاً فادحاً على مشروع سماوي، طالما دعت السماء إليه وحذّرت من معاداته أو الوقوف على الضدِّ منه، وتوعدت من يفعل ذلك ويجتهد فيه خزياً في الدنيا وعذاباً عظيماً في الآخرة، وعدّت من ينشط في ذلك ويُسخّر جهده وماله وما يستطيع منعاً وتخريباً لا فقط مسيئاً لها وظالماً بل هو الأظلم، بمعنى لا أحد أظلم و أشدّ جرماً منه؛ وهو ما انطلقت به الآية التالية لتبقى على مرِّ العصور والأجيال رادعةً مهدّدةً متوعّدةً كلّ ظالمٍ معتدٍ متجاوزٍ على إرادته تعالى وعلى دينه وعباده! فسواء أكان الذي يرتكب المنع والتخريب لمساجد الله تعالى هم: اليهود، أو النصارى، أو هم المشركون؛ وهو كما يبدو القول الراجح في أسباب نزول الآية المذكورة، فالسماء

تقول لهؤلاء وبالتالي لغيرهم ممن يفعل فَعلتهم: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ...**﴾ كما جاء في الآية التالية، التي راحت تتساءل عمن هو أظلم:

انظرها قائلةً: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَآ أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.[1]

﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ...**﴾؟! من هذا يتبين لنا أنَّ الصدَّ بمعنى المنع هو المقصود في الآيات التي تتحدث عما تعرّض له المسجد الحرام، حينما يتمُّ التآمر عليه عبر وسيلتين:

الأولى: المنع ﴿**مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾، وقد ترددت أقوالهم في المانع وفي المساجد بين أن يكون المانع هم النصارى أو هم مشركو قريش، وبين بيت المقدس، والمسجد الحرام، وقول ثالث في كلّ مانع وفي كلّ مسجد؛ لظاهر الآية وهو العموم حتى وإن كان سبب نزوله خاصاً، فالعبرة به لا بخصوص السبب...

والثانية: التخريب ﴿**وَسَعَى فِي خَرَابِهَآ**﴾، أي لا أحد أظلم ـ على كثرة المظالم والظالمين في الدنيا ـ من هذا الذي منع مساجد الله تعالى كراهةَ أن يذكر فيها اسمه، ونشط في تخريب بنائها، أو دورها المرسوم لها في حياة الناس المؤمنين، وتتناول هذه الآية كلَّ من منع من مسجد إلى يوم القيامة، كما يقول ابن عطية في تفسيره: واختلف في المشار إليه من

---

١. البقرة : ١١٤ .

هذا الصنف الظالم... وقال ابن زيد: المراد كفار قريش حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، وهذه الآية تتناول كلَّ من منع من مسجد إلى يوم القيامة أو خرب مدينة إسلام؛ لأنها مساجد، وإن لم تكن موقوفة، إذ الأرض كلّها مسجد لهذه الأمة.[1]

وهذا يعني أنّ هؤلاء الذين يمنعون الحجاج ويصدونهم عن المسجد الحرام في وقتنا هذا، تلاحقهم كما لاحقت كفار قريش صفةُ كونهم ظالمين، و أنّ ما يقومون به لظلم عظيم، بل هو في أعلى درجات الظلم، ويدخلون في: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ...**﴾.

فعلاً قول يحتاج لا إلى علامة تعجب واحدة بل آلاف منها، فهو دليل على أنه ما أخطره وأقبحه من فعل ذاك الذي وصف فاعله بأنه أظلم...

لقد ابتدأت الآية بهذا التساؤل: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ... ؟!**﴾، فلا بدَّ لنا من الوقوف عند هذا التعبير، الذي يقول عنه ابن عاشور: ...وإنما كانوا أظلم الناس؛ لأنهم أتوا بظلم عجيب، فقد ظلموا المسلمين من المسجد الحرام وهم أحقّ الناس به، وظلموا أنفسهم بسوء السمعة بين الأمم...

﴿**وَمَنْ**﴾، ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ...**﴾: "مَنْ" استفهامٌ في محلِّ رفعٍ بالابتداء،

---

١. انظر تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ) وذكر هذا عنه أبو حيان في تفسيره البحر المحيط: الآية .

والواو: استئنافية.

مَنْ: اسم استفهام في محل رفع بالابتداء.

«أظلمُ» أفعلُ تفضيلٍ خبرُه، ومعنى الاستفهامِ هنا النفيُ، أي: لا أحدَ أظلمُ منه.

وحُكي عن تفسير ابن عثيمين: ...والاستفهام هنا بمعنى النفي؛ يعني لا أحد أظلم؛ والميزان الذي يبيّن أن الاستفهام بمعنى النفي أنك لو حذفت الاستفهام، وأقمت النفي مقامه لصح؛ والفائدة من تحويل النفي إلى الاستفهام أنه أبلغ في النفي؛ إذ إن الاستفهام الذي بمعنى النفي مشرب معنى التحدي؛ كأنه يقول: بيّنوا لي أيّ أحد أظلم من كذا وكذا.

وقوله تعالى: ﴿**أَظْلَمُ**﴾ اسم تفضيل من الظلم؛ وأصله في اللغة النقص؛ وهو أن يفرط الإنسان فيما يجب؛ أو يعتدي فيما يحرم؛ ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿**كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً...**﴾.[1]

أي لم تنقص؛ وهو في الشرع بهذا المعنى؛ لأن الظلم عبارة عن تفريط في واجب، أو انتهاك لمحرم وهذا نقص...

ابن عاشور: والاستفهام بمن إنكاري ولما كان أصل مَنْ أنها نكرة موصوفة أشربت معنى الاستفهام وكان الاستفهام الإنكاري في معنى النفي صار الكلام من وقوع النكرة في سياق النفي فلذلك فسروه بمعنى لا أحد

---

١. الكهف : ٣٣ .

أظلم.

وعن الظلم يقول: والظلم الاعتداء على حق الغير بالتصرف فيه بما لا يرضى به، ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه، والمعنيان صالحان هنا.

ولمزيد فائدة؛ أذكر هنا ما أجاب به السمين الحلبي وكذا أبوحيان في تفسيره، وأكتفي بالأول عن سؤال حول ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ**﴾ الواردة في الآية: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ مّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىَ فِى خَرَابِهَآ ...**﴾.

ولَمَّا كان المعنى على ذلك أَوْرَدَ بعضُ الناس سؤالاً: وهو أنَّ هذه الصيغةَ قد تكرَّرتْ في القرآن:

﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى**﴾.[١]

﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ**﴾.[٢]

﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ علَى ٱللهِ**﴾.[٣]

وكلّ واحدةٍ منها تقتضي أنَّ المذكورَ فيها لا يكونُ أحدٌ أظلمَ منه، فكيف يُوصفُ غيرُه بذلك؟

وفي ذلك ثلاثةُ أجوبةٍ:

أحدُها: ـ ذكره هذا السائلُ ـ وهو أَنْ يُخَصَّ كلُّ واحدٍ بمعنى صلته

---

١. الأنعام : ٢١ .

٢. السجدة : ٢٢ .

٣. الزمر : ٣٢ .

كأنه قال: لا أحدَ من المانعين أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مساجدَ الله، ولا أحدَ من المفترين أظلمُ مِمَّن افترى على الله، ولا أحدَ من الكذَّابين أظلمُ مِمَّن كَذَب على الله، وكذلك ما جاءَ منه.

الثاني: أنّ التخصيصَ يكونُ بالنسبةِ إلى السَّبْقِ، لَمَّا لم يُسْبَقْ أحدٌ إلى مثلِه حَكَم عليهم بأنَّهم أظلمُ مِمَّن جاء بعدَهم سالكاً طريقتَهم في ذلك، وهذا يُؤُول معناه إلى السَّبْقِ في المانعيَّةِ والافترائيَّةِ ونحوِهما.

الثالث: أنَّ هذا نَفْيٌ للأظلميَّة، ونفيُ الأظلميَّةِ لا يَسْتَدْعي نفيَ الظالميةِ، لأنَّ نَفْيَ المقيدِ لا يَدُلُّ على نفيِ المطلقِ، وإذا لم يَدُلَّ على نَفْيِ الظالميةِ لم يكن مناقِضاً؛ لأنَّ فيها إثباتَ التسوية في الأظلميةِ، وإذا ثَبَتَتْ التسويةُ في الأظلميةِ لم يكنْ أحدٌ مِمَّن وُصِف بذلك يزيدُ على الآخر، لأنهم متساوون في ذلك وصار المعنى: ولا أحدَ أظلمُ مِمَّن مَنَع ومِمَّن افترى وممَّن ذُكِّر، ولا إشكالَ في تساوي هؤلاء في الأظلميَّة، ولا يَدُل ذلك على أنَّ أحد هؤلاء يزيدُ على الآخرِ في الظلم، كما أنَّك إذا قلتَ: "لا أحدَ أفقهُ من زيدٍ وبكرٍ وخالدٍ" لا يَدُلُّ على أن أحدَهم أفقهُ من الآخر، بل نَفَيْتَ أن يكونَ أحدٌ أفقهَ منهم، لا يُقال: إنَّ مَنْ مَنَع مساجدَ اللهِ وسَعَى في خرابها ولم يَفْتَرِ على الله كذباً أقلُّ ظلماً مِمَّنْ جَمَعَ بين هذه الأشياء فلا يكونون متساوين في الأظلميةِ؛ لأنَّ هذه الآياتِ كلَّها في الكفار وهم متساوُون في الأظلميَّة وإن كان طُرُقُ الأظلميةِ مختلفةً...

وأما الآلوسي فبعد أن نقل ما ذكره أبوحيان، قال: ولا يخفى

ما فيه. ذكر التالي:

وقد قال غير واحد: إنَّ قولك: من أظلم ممن فعل كذا إنكار لأن يكون أحد أظلم منه أو مساوياً له، وإن لم يكن سبك التركيب متعرضاً لإنكار المساواة ونفيها إلا أنَّ العرف الفاشي والاستعمال المطرد يشهد له؛ فإنه إذا قيل: من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان، فالمراد به حتماً أنه أكرم من كلّ كريم وأفضل من كلّ فاضل، فلعل الأولى الرجوع إلى أحد الجوابين مع ملاحظة الحيثية، وإن جعلت ذلك الكلام مخرجاً مخرج المبالغة في التهديد والزجر مع قطع النظر عن نفي المساواة أو الزيادة في نفس الأمر كما قيل به محكماً العرف أيضاً زال الإشكال وارتفع القيل والقال فتدبر.[1]

وعن الوجه في كونه أظلم من غيره يقول السيد السبزواري: لأنه جُمع في المساجد حقُّ الله وحقُّ الناس، فوقع الظلم بالنسبة إلى الحقّين، فيكون المنع عن ذكر اسمه فيها ظلماً نوعيّاً، وتترتب عليه المفاسد فيكون أظلم...

وكذا يقول الرازي في المسألة السادسة: ظاهر الآية يقتضي أن هذا الفعل أعظم أنواع الظلم، وفيه إشكال؛ لأنّ الشرك ظلم على ما قال

---

١. انظر الدر الثمين، السمين الحلبي؛ والبحر المحيط، أبوحيان؛ وأيضاً انظر ما قاله الآلوسي في تفسيره روح المعاني: الآية .

تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾.[١] مع أنّ الشرك أعظم من هذا الفعل، وكذا الزنا وقتل النفس أعظم من هذا الفعل، والجواب عنه: أقصى ما في الباب أنه عام دخله التخصيص فلا يقدح فيه.

وفي اللغة: يقول الشيخ الطبرسي: المنع والصدّ والحيلولة نظائر وضد المنع الإطلاق، والسعي والركض والعدو نظائر وضد السعي الوقف...

ويقول أبوحيان: المنع: الحيلولة بين المريد ومراده... وفعله: منع يمنع، بفتح النون، وهو القياس، لأن لام الفعل أحد حروف الحلق...

السعي: المشي بسرعة، وهو دون العدو،...

الخراب: ضد العمارة، وهو مصدر خرب الشيء يخرب خراباً، ويوصف به فيقال: منزل خراب، واسم الفاعل: خرب، كما قال أبو تمام:

ما ربع مية معموراً يطيف به*غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب..[٢]

وكما أطلق الله سبحانه وتعالى المساجد وجاءت جمعاً في تينك الآيتين ١٧ـ ١٨ التوبة، أطلقها وجاءت جمعاً هنا في هذه الآية ١١٤ البقرة، وما ذكر هناك يجري هنا؛ ولأنه قبلة المساجد كلّها وإمامها، فالكعبة للمسلمين، وبيت المقدس لغيرهم، ولعلّها أتت جمعاً؛ ليكون الوعيد شاملاً لكلِّ مخرِّب لمسجد أو مانع العبادة فيه.. أو لأن المانعين

---

١. لقمان : ١٣ .

٢. انظر تفسير البحر المحيط : الآية .

كفار مكة، كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام، وفي المساجد التي اتخذوها بفناء الكعبة، فقد ورد في بعض كتب التفسير أنَّ من الصحابة من كان له مسجد يتعبّد فيه...

ونكتفي هنا زيادةً على ما ذكر عن المساجد والمنع بما قاله ابن عاشور: وجُمِعَ المساجدُ وإن كان المشركون منعوا الكعبة فقط إما للتعظيم فإنّ الجمع يجيء للتعظيم كقوله تعالى: ﴿**وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ...**﴾.[1] وإما لما فيه من أماكن العبادة وهي البيت والمسجد الحرام ومقام إبراهيم والحطيم، وإما لما يتصل به أيضاً من الخيف ومنى والمشعر الحرام وكلها مساجد، والإضافة على هذه الوجوه على معنى لام التعريف العهدي، وإما لقصد دخول جميع مساجد الله؛ لأنه جمع تعرف بالإضافة ووقع في سياق منع الذي هو في معنى النفي ليشمل الوعيد كل مخرب لمسجد أو مانع من العبادة بتعطيله عن إقامة العبادات ويدخل المشركون في ذلك دخولاً أولياً على حكم ورود العام على سبب خاص والإضافة على هذا الوجه على معنى لام الاستغراق ولعل ضمير الجمع المنصوب في قوله: ﴿**أَنْ يَدْخُلُوهَا**﴾، يؤيد أنّ المراد من المساجد مساجد معلومة؛ لأنّ هذا الوعيد لا يتعدى لكل من منع مسجداً إذ هو عقاب دنيوي لا يلزم اطراده في أمثال المعاقب، والمراد من المنع منعُ العبادة في

١. الفرقان : ٣٧ .

أوقاتها الخاصة بها كالطواف والجَماعة إذا قصد بالمنع حرمان فريق من المتأهلين لها منها. وليس منه غلق المساجد في غير أوقات الجماعة لأن صلاة الفذ لا تفضل في المسجد على غيره، وكذلك غلقها من دخول الصبيان والمسافرين للنوم، وقد سئل ابن عرفة في درس التفسير عن هذا فقال: غلق باب المسجد في غير أوقات الصلاة حفظ وصيانة اهـ. وكذلك منع غير المتأهل لدخوله وقد منع رسول الله المشركين الطواف والحج ومنع مالك الكافر من دخول المسجد ومعلوم منعُ الجُنب والحائض...

هذا وذكرت أقوال في المقصود بالمنع والتخريب؛ إما المسجد الحرام وإما بيت المقدس، أو هي عموم المساجد على الاختلاف بين الأعلام.

يقول الطبرسي: وإذا حمل قوله: ﴿**مساجد الله**﴾، على بيت المقدس أو على الكعبة، فإنما جاز جمعه على أحد وجهين، إما أن تكون مواضع السجود فإنّ المسجد العظيم يقال لكل موضع منه: مسجد، ويقال لجملته: مسجد. وإما أن يدخل في هذه اللفظة المساجد التي بناها المسلمون للصلاة. وروي عن زيد بن علي عن آبائه عن علي عليه السلام أنه أراد جميع الأرض لقول النبي صلى الله عليه وآله:

«جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً».

ويقول الزمخشري: ...فإن قلت: فكيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجيء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن

آذى صالحاً واحداً: ومن أظلم ممن آذى الصالحين. وكما قال الله عزّوجلّ: ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ**﴾.[١] والمنزول فيه الأخنس بن شريق.

المساجد هي الأماكن المحررة للعبادة والسجود له تعالى، هذا ما ذكره السيد السبزواري عن المساجد، لكنه يقول كلاماً آخر بعده: بل يمكن أن يُراد بها مضافاً إلى ذلك عباد الله المخلصين، الذين أفنوا جميع شؤونهم وحيثياتهم في طاعة الله تعالى وعبادته بكلّ معنى العبودية، فصاروا من مظاهر آيات الله كالمساجد وعبادته، فيكون المراد من منعهم عن ذكر اسم الله تعالى السعي في تشتت حالهم، وتفرق بالهم، وهجرانهم الأهل والديار، وتشديد الردّ عليهم؛ ليسكتوا عن إظهار الحقّ، وإزالة الباطل، فتاهوا في الأرض بلا سند ولا ذنب غير أنهم يقولون:

﴿**يَا قَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾.[٢] بل لا يبعد التعدي إلى مطلق ما أعدّ لذلك كعرفات والمشعر والحرم ومنى.[٣]

---

١. الهمزة : ١ .

٢. أحقاف : ٣١ .

٣. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش؛ تفسير القرآن الكريم، العثيمين؛ والتحرير والتنوير، لابن عاشور؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ و تفسير الكشاف، الزمخشري؛ والدر المصون، للسمين الحلبي (ت ٧٥٦ هـ)؛ وكذا تفسير البحر المحيط، أبوحيان (ت ٧٥٤ هـ)؛ وتفسير مواهب الرحمن ١ : ٤٤٠ . الآية .

وقفة مع أسباب النزول:

ذكرت أربعة أوجه في الذين منعوا من عمارة المسجد وسعوا في خرابه، أحصاها الرازي في المسألة الأولى من تفسيره الكبير، وأضاف لها وجهاً خامساً اختصَّ به، جاء ذلك بعد أن ذكر إجماع المفسرين على أنه ليس المراد من هذه الآية مجرد بيان الشرط والجزاء، أعني مجرد بيان أن من فعل كذا فإنّ الله يفعل به كذا، بل المراد منه بيان أن منهم من منع عمارة المساجد وسعى في خرابها، ثم أن الله تعالى جازاهم بما ذكر في الآية...

أول الوجوه: قال ابن عباس: أن ملك النصارى غزا بيت المقدس فخربه وألقى فيه الجيف وحاصر أهله وقتلهم وسبى البقية وأحرق التوراة، ولم يزل بيت المقدس خراباً حتى بناه أهل الإسلام في زمن عمر.

وثانيها: قال الحسن وقتادة والسدي: نزلت في بختنصر حيث خرب بيت المقدس وبعض النصارى أعانه على ذلك بغضاً لليهود...

وثالثها: أنها نزلت في مشركي العرب الذين منعوا الرسول عليه الصلاة والسلام عن الدعاء إلى الله بمكة وألجئوه إلى الهجرة، فصاروا مانعين له ولأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام، ... وطرح أبوجهل العذرة على ظهر النبي صلى الله عليه وآله فقيل: ومن أظلم من هؤلاء المشركين الذين يمنعون المسلمين الذين يوحدون الله ولا يشركون به شيئاً، ويصلون له تذللاً وخشوعاً، ويشغلون قلوبهم بالفكر فيه، وألسنتهم بالذكر له، وجميع

جسدهم بالتذلل لعظمته وسلطانه.

ورابعها: قال أبو مسلم: المراد منه الذين صدوه عن المسجد الحرام حين ذهب إليه من المدينة عام الحديبية، واستشهد بقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.[١]

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ ٱللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.[٢]

ثم يقول الرازي: وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم: وهو أن يقال: أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضاً في تخريب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم لئلا يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم فيه، وهذا التأويل أولى مما قبله، وذلك لأنّ الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلاّ قبائح أفعال اليهود والنصارى، وذكر أيضاً بعدها قبائح أفعالهم فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدّهم الرسول عن المسجد الحرام، وأما حمل الآية على سعي النصارى في تخريب بيت المقدس فضعيف أيضاً على ما شرحه أبو بكر الرازي، فلم

---

١. الفتح : ٢٥ .

٢. الأنفال : ٣٤ .

يبق إلاّ ما قلناه.[١]

ردُّ الوجهين الأولين:

وبعد أن ذكر الرازي الوجهين الأولين، ذكر ما قاله أبو بكر الرازي في أحكام القرآن عنهما: هذان الوجهان غلطان؛ لأنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن عهد بختنصر كان قبل مولد المسيح عليه السلام بدهر طويل، والنصارى كانوا بعد المسيح، فكيف يكونون مع بختنصر في تخريب بيت المقدس، وأيضاً فإنَّ النصارى يعتقدون في تعظيم بيت المقدس مثل اعتقاد اليهود وأكثر، فكيف أعانوا على تخريبه.

وأضيف على ما ذكره الرازي عن هذين الوجهين ردَّ الشيخ البلاغي لهما بعد استغرابه من التفاسير العجيبة الغريبة كما يصفها في تفسيره، وهذا نصُّ كلامه: «وفي المقام تفاسير عجيبة غريبة؛ منها ما ذكره الواحدي عن قتادة وذكره غيره عن الحسن أيضاً وهو أنَّ بختنصر خرّب بيت المقدس وأعانته على ذلك النصارى: وليت شعري أين بختنصر من النصارى وهو قبل المسيح بنحو ستمائة سنة، وقريب منه ما ذكره الواحدي، وروي عن كعب الأحبار».

وكذلك ابن عاشور يقول:... فلا ينبغي بناء التفسير عليهما. فبعد أن رجح قول ابن عباس وأنَّ الآية نازلة في مشركي العرب، ناسباً غير

---

١. تفسير مفاتيح الغيب؛ التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ) بتصرف .

هذا القول إلى القيل، جاء ذلك ضمن كلام له أجاد به حين قال:... ولا كظلم من منع مساجد الله... وأنَّ ظلمهم (أي مشركي مكة) في ذلك لم يبلغه أحد ممن قبلهم...؛ ذكر ذلك فيما قاله عن الآية: عطف على ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ**﴾.[1] باعتبار ما سبق ذلك من الآيات الدالة على أفانين أهل الكتاب في الجرأة وسوء المقالة أي أنَّ قولهم هذا وما تقدمه ظلم، ولا كظلم من منع مساجد الله، وهذا استطرادٌ واقع معتَرضاً بين ذكر أحوال اليهود والنصارى لذكر مساوىء المشركين في سوء تلقيهم دعوة الإسلام الذي جاء لهديهم ونجاتهم.

والآية نازلة في مشركي العرب كما في رواية عطاء عن ابن عباس وهو الذي يقتضيه قوله: ﴿**أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ**﴾، وهي تشير إلى منع أهل مكة النبيّ ﷺ والمسلمين من الدخول لمكة كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خفية وقال له أبوجهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمناً وقد أويتم الصباة، وتكرر ذلك في عام الحديبية.

وقيل نزلت في بختنصر ملك أشور وغزوه بيت المقدس ثلاث غزوات أولاها في سنة ٦٠٦ قبل المسيح زمن الملك يهوياقيم ملك اليهود سبى فيها جمعاً من شعب إسرائيل. والثانية بعد ثمان سنين سبى فيها رؤساء المملكة والملك يهواكين بن يهوياقيم ونهب المسجد المقدس من

١. البقرة : ١١٣ .

جميع نفائسه وكنوزه. والثالثة بعد عشر سنين في زمن الملك صدقيا فأسر الملك وسمل عينيه وأحرق المسجد الأقصى وجميع المدينة وسبى جميع بني إسرائيل وانقرضت بذلك مملكة يهوذا وذلك سنة ٥٧٨ قبل المسيح وتسمى هذه الواقعة بالسبي الثالث فهو في كل ذلك قد منع مسجد بيت المقدس من أن يذكر فيه اسم الله وتسبب في خرابه.

وقيل: نزلت في غزو طيطس الروماني لأورشليم سنة ٧٩ قبل المسيح فخرب بيت المقدس وأحرق التوراة وترك بيت المقدس خراباً إلى أن بناه المسلمون بعد فتح البلاد الشامية.

ثمَّ يعقب قائلاً:

وعلى هاتين الروايتين الأخيرتين لا تظهر مناسبة لذكرها عقب ما تقدم، فلا ينبغي بناء التفسير عليهما. والوجه هو التعويل على الرواية الأولى وهي المأثورة عن ابن عباس فالمناسبة أنه بعد أن وفي أهل الكتاب حقهم من فضح نواياهم في دين الإسلام وأهله وبيان أن تلك شنشنة متأصلة فيهم مع كل من جاءهم بما يخالف هواهم وكان قد أشار إلى أن المشركين شابهوهم في ذلك عند قوله: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مّنْ خَيْرٍ مِن رَّبِكُمْ...**﴾.[1]

عطف الكلام إلى بيان ما تفرع عن عدم ودادة المشركين نزول

---

١. البقرة : ١٠٥ .

القرآن فبين أن ظلمهم في ذلك لم يبلغه أحد ممن قبلهم إذ منعوا مساجد الله وسدوا طريق الهدى وحالوا بين الناس وبين زيارة المسجد الحرام الذي هو فخرهم وسبب مكانتهم وليس هذا شأن طالب صلاح الخلق بل هذا شأن الحاسد المغتاظ... وإنما كانوا أظلم الناس لأنهم أتوا بظلم عجيب فقد ظلموا المسلمين من المسجد الحرام وهم أحق الناس به وظلموا أنفسهم بسوء السمعة بين الأمم...[١]

وهناك غير الرازي ذكر الوجهين الأولين أو مثلهما؛ منهم الواحدي في أسبابه الذي ذكر أنَّ الآية نزلت في طَطُوسَ الرُّومِيِّ وأصحابه من النَّصارى، وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل، فقتلوا مقاتلتهم، وسبوا ذراريهم، وحرقوا التوراة، وخربوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف. وهذا قول ابن عباس في رواية الكلبي.

وقال قَتَادَةُ والسُّدِّيُّ: هُوَ بُخْتُنَصَّرُ وأصْحَابُهُ غَزَوُا الْيَهُودَ وخَرَّبُوا بَيْتَ الْمَقْدِس، وأعَانَتْهُمْ عَلَى ذَلِكَ النَّصَارَى مِنْ أهْل الرُّوم.

لكن الواحدي ذكر قولاً ثالثاً عن ابن عباس: وقال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت في مشركي أهل مكة ومنعهم المسلمين من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام.[٢]

---

١. انظر التفسير الكبير، للرازي؛ وآلاء الرحمن في تفسير القرآن، للشيخ محمد جواد البلاغي (ت١٣٥٢هـ)؛ وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور : الآية .

٢. أسباب نزول القرآن، للواحدي : الآية .

وعن ﴿**وَسَعىَ فِي خَرَابهَا**﴾، الزمخشري:... ﴿**وَسَعىَ فِي خَرَابهَا**﴾، بانقطاع الذكر أو بتخريب البنيان.

يقول القرطبي وهو يتحدث عن التخريب الحقيقي والتخريب المجازي: خراب المساجد قد يكون حقيقيًّا كتخريب بُخْتَ نَصّر والنصارى بيت المقدس... ويكون مجازاً كمنع المشركين المسلمين حين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد الحرام؛ وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها..

الرازي في المسألة الخامسة: السعي في تخريب المسجد قد يكون لوجهين:

أحدهما: منع المصلين والمتعبدين والمتعهدين له من دخوله فيكون ذلك تخريباً.

والثاني: بالهدم والتخريب وليس لأحد أن يقول: كيف يصح أن يتأول على بيت الله الحرام ولم يظهر فيه التخريب؛ لأن منع الناس من إقامة شعار العبادة فيه يكون تخريباً له...

يقول ابن عاشور: والسعي أصله المشي ثم صار مجازاً مشهوراً في التسبب المقصود كالحقيقة العرفية نحو ﴿**ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى**﴾.[1]

ويعدى بفي الدالة على التعليل نحو: سعيت في حاجتك؛ فالمنع هنا

---

١. النازعات : ٢٢ .

حقيقة على الرواية الأولى المتقدمة في سبب النزول والسعي مجاز في التسبب غير المقصود فهو مجاز على مجاز. وأما على الروايتين الأخريين فالمنع مجاز والسعي حقيقة لأن بختنصر وطيطس لم يمنعا أحداً من الذكر، ولكنهما تسببا في الخراب بالأمر بالتخريب فأفضى ذلك إلى المنع وآل إليه...

ويقول أبوحيان: ﴿**وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا**﴾، إما حقيقة، كتخريب بيت المقدس، أو مجازاً بانقطاع الذكر فيها ومنع قاصديها منها، إذ ذلك يؤول بها إلى الخراب. فجعل المنع خراباً، كما جعل التعاهد بالذكر والصلاة عمارة، وذلك مجاز.

وقال المروزي: قال: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ**﴾، ليعلم أنّ قبح الاعتقاد يورث تخريب المساجد، كما أنّ حسن الاعتقاد يورث عمارة المساجد..

وبعد أن يذكر السيد السبزواري أنَّ المنع عن ذكر الله تعالى فيها أعمّ من أن يكون بالمباشرة أو التسبيب، وربّ سبب أقوى من المباشر. وأنَّ المراد بالذكر الأعم مما كان باللسان، أو القلب، أو الجوارح كالصلاة مثلاً، ويشمل كلَّ عبادة الله تعالى، ولو كانت بمجرد الإمساك كالصوم في المسجد مثلاً، فإنّ الجميع داخل تحت عنوان الله تعالى، إلاّ أنَّ ظهوره في البعض أكثر من الآخر، وذلك لا ينافي ظهور الإطلاق.

وأنَّ المراد من اسمه تعالى الأعمّ؛ أي كلّ ما به الإشارة إليه عزَّوجلَّ وكان له تعالى.

يقول عن المراد من ﴿**وَسَعىَ فِي خَرَابِهَا**﴾: إما تهديها، كما وقع من بعض العتاة والجبابرة، أو تعطيلها عن إقامة الشعائر فيها، وحكم الآية عام لا يختصّ بفرد خاص...[1]

وقفة مع الطبري في قوله تعالى: ﴿وَسَعىَ فِي خَرَابِهَا﴾:

...وأما قوله: ﴿**وَسَعىَ فِي خَرَابِهَا**﴾، فإنّ معناه: ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وممن سعى في خراب مساجد الله. فـ «سعى» إذا عطف على «منع».

فإن قال قائل: ومن الذي عني بقوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِها**﴾، وأيّ المساجد هي؟

قيل: إنّ أهل التأويل في ذلك مختلفون، فقال بعضهم: الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم النصارى، والمسجد بيت المقدس.

ثمَّ ذكر من قال ذلك... وقال آخرون: هو بختنصر وجنده ومن أعانهم من النصارى...

والمسجد: مسجد بيت المقدس. ثمَّ ذكر من قال ذلك...

---

١. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي؛ والتفسير الكبير، للرازي؛ والتحرير والتنوير، لابن عاشور؛ وتفسير البحر المحيط، أبو حيان؛ ومواهب الرحمن، للسيد السبزواري: الآية .

وقال آخرون: بلى عنى الله عزّوجلَّ بهذه الآية مشركي قريش، إذ منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله من المسجد الحرام. ثمَّ ذكر من قال ذلك:

حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال: حدثنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِها**﴾، قال: هؤلاء المشركون، حين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة حتى نحر هدية بذي طُوًى وهادنهم، وقال لهم:

«ما كَانَ أحَدٌ يُرَدُّ عن هذا البَيْتِ».

وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فما يصدّه.

وقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باقٍ.

وفي قوله: ﴿**وَسَعَى فِي خَرَابِها**﴾، قالوا: إذا قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحجّ والعمرة.

وبعد أن ذكر ذلك، قال: وأولى التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية قول من قال: عنى الله عزَّوجلَّ بقوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ**﴾، النصارى؛ وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس، وأعانوا بختنصر على ذلك، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده.

وأما دليله على ذلك، فقد قال: والدليل على صحة ما قلنا في ذلك: قيام الحجّة بأن لا قول في معنى هذه الآية إلاّ أحد الأقوال

الثلاثة التي ذكرناها، وأن لا مسجد عنى الله عزَّوجلَّ بقوله: ﴿**وَسَعَى فِي خَرَابِهَا**﴾، إلاّ أحد المسجدين، إما مسجد بيت المقدس، وإما المسجد الحرام. وإذْ كان ذلك كذلك، وكان معلوماً أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه من الصلاة فيه، صحّ وثبت أن الذين وصفهم الله عزَّوجلَّ بالسعي في خراب مساجده غير الذين وصفهم الله بعمارتها، إذْ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارته كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم فيه كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم.

وأخرى، أنّ الآية التي قبل قوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ**﴾، مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذَمِّ أفعالهم، والتي بعدها نبهت بذمّ النصارى والخبر عن افترائهم على ربّهم، ولم يَجْرِ لقريش ولا لمشركي العرب ذكر، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر بقول الله عزَّوجلَّ: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ**﴾، إليهم وإلى المسجد الحرام. وإذْ كان ذلك كذلك، فالذي هو أوْلى بالآية أن يوجه تأويلها إليه، هو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها، إذ كان خبرها لخبرهما نظيراً وشكلاً، إلاّ أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك وإن اتفقت قصصها فاشتبهت.. فإن ظنّ ظانّ أنّ ما قلنا في ذلك ليس كذلك، إذْ

كان المسلمون لم يلزمهم قط فرض الصلاة في المسجد المقدس، فمنعوا من الصلاة فيه، فيلجئون توجيه قوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ**﴾، إلى أنه معنيّ به مسجد بيت المقدس فقد أخطأ فيما ظنّ من ذلك. وذلك أن الله جلَّ ذكره إنما ذكر ظلم من منع من كان فرضه الصلاة في بيت المقدس من مؤمني بني إسرائيل، وإياهم قصد بالخبر عنهم بالظلم والسعي في خراب المسجد، وإن كان قد دلّ بعموم قوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ**﴾، أن كل مانع مصلياً في مسجد لله فرضاً كانت صلاته فيه أو تطوّعاً، وكل ساع في إخرابه فهو من المعتدين الظالمين...[١]

ففيما ذكره عبارته الأخيرة كانت حقًّا لا شك فيه، «... وإن كان قد دلّ بعموم قوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ**﴾، أنَّ كلَّ مانع مصلياً في مسجد لله فرضاً كانت صلاته فيه أو تطوّعاً، وكلَّ ساع في إخرابه فهو من المعتدين الظالمين...».

وأيضاً ما ذكره في قوله: ﴿**وَسَعَى فى خَرَابِها**﴾، قالوا: إذا قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحجّ والعمرة.

والأهم ما حدث به ابن زيد، وكان فيه قوله صلى الله عليه وآله:

---

١. تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠ هـ).

«ما كَانَ أحَدٌ يُرَدُّ عن هذا البَـيْتِ».

وقد كان الرجل يـلقـى قاتل أبـيه أو أخيه فـيه فما يصدّه.

وقالوا: لا يدخـل علـينا من قتل آبـاءنا يوم بدر وفـينا بـاقٍ.

ولكن الكلام في عبارته هذه: «... وكان معلوماً أنّ مشركي قـريش لـم يسعوا قط فـي تـخريب الـمسجد الـحرام...»، التي وردت في دليلـه الذي ساقه لما ذهب إليـه مـن أنّ أولى التـأويلات الثلاثـة هـو التأويـل الأول...

وكأنّ الطبري يرى عمارة المسجد ببنائه، ولا يرى التخريـب فيمـا فعلوه، «على غير الوجه الذي يرضاه الله منـهم»، كمـا جـاءت عبارتـه، والتي منها ما جاء في الآية وعدّته الأكبر: ﴿**وَصَدٌّ عَـن سَـبِيلِ ٱللهِ وَكُفْـرٌ بِـهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللهِ**﴾، فلا يرى الصدَّ ولا غيره مما ذكرته الآية والآيات الأخرى تخريباً..

وهذا الشيخ الطبرسي يجيبه؛ بعد أن ذكر أنَّ المنع والصدَّ والحيلولـة نظائر وضدّ المنع الإطلاق، وبعد أن ذكر أيضاً اختلافهم على أقوال ثلاثـة في المعني بهذه الآية، فقال ابن عباس ومجاهـد: إنهـم الـروم غـزوا بيـت المقدس وسعوا في خرابه حتى كانت أيام عمر فأظهر الله المسلمين علـيهم وصاروا لا يدخلونه إلاّ خائفين.

وقال الحسن وقتادة هو بُخْتُ نَصَّر خرب بيت المقدس وأعانه عليه النصارى.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام: «أنهم قريش حين منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله دخول مكة والمسجد الحرام»، وبه قال البلخي والرماني والجبائي.

جاء جوابه بعد هذه الرواية حيث قال: «وضعّف هذا الوجه الطبري بأن قال: إنَّ مشركي قريش لم يسعوا في تخريب المسجد الحرام».

وقوله يفسد بأن عمارة المساجد إنما تكون بالصلاة فيها وخرابها بالمنع من الصلاة فيها، وقد وردت الرواية بأنهم هدموا مساجد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله يصلون فيها بمكة لما هاجر النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة.

وقال: وهو أيضاً لا يتعلق بما قبله من ذم أهل الكتاب كما يتعلق به إذا عنى به النصارى وبيت المقدس.

وجوابه أنه قد جرى أيضاً ذكر غير أهل الكتاب في قوله:

﴿**كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾. وهذا أقرب؛ لأن الكلام خرج مخرج الذم، فمرة توجه الذم إلى اليهود، ومرة إلى النصارى، ومرة إلى عبدة الأصنام والمشركين.[1]

وأما ابن كثير، فهو الآخر ردَّ قول الطبري بعد أن ذكر التالي: اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها، على قولين:...

---

١. تفسير مجمع البيان : الآية .

(القول الثاني)، ما رواه ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِها**﴾، قال: هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخل مكة، حتى نحر هديه بذي طوى، وهادنهم، وقال لهم: «**ما كان أحد يصد عن هذا البيت، وقد كان الرجل، يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده**»، فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر، وفينا باق. وفي قوله: ﴿**وَسَعَى فِي خَرَابِها**﴾، قال: إذ قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سلمة قال: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، أن قريشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ**﴾.

ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة، وأما الروم، فسعوا في تخريب بيت المقدس، (قلت): والذي يظهر، والله أعلم، القول الثاني كما قاله ابن زيد. وروي عن ابن عباس، لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك، لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، وأيضاً فإنه تعالى، لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى،

شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة، فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوۤاْ أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾.[1]

وقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ۞ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلاَةَ وَءاتَى ٱلزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ ٱللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ**﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿**هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**﴾.[3]

فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ**

---

١. الأنفال : ٣٤ .

٢. التوبة : ١٧ـ ١٨ .

٣. الفتح : ٢٥ .

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَءاتَى ٱلزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ ٱللَّهَ﴾.[١]

وأحسن ابن كثير حين قال:

فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها، مصدوداً عنها، فأيّ خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها، وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك...[٢]

وتقول الآية عنهم أيضاً:

﴿أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلاَّ خَآئِفِينَ لَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي ما كان أولـئِكَ المانعون أن يدخلوا مساجد الله إلاَّ على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها..

قد ذكر لهم عقوبتين:

دنيوية وهي الخوف والخزي، فإنّ الخزي خوف والخزي الذل والهوان، وذلك ما نال صناديد المشركين يوم بدر من القتل الشنيع والأسر، وما نالهم يوم فتح مكة من خزي الانهزام...

---

١. التوبة : ١٨ .

٢. تفسير القرآن الكريم، ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ).

وأخروية وهي العذاب العظيم.[١]

وبعد أن يذكر سيد قطب أنَّ أقرب ما يتوارد إلى الخاطر أن هاتين الآيتين تتعلقان بمسألة تحويل القبلة وسعي اليهود لصدِّ المسلمين عن التوجه إلى الكعبة.. أول بيت وضع للناس وأول قبلة.. وهناك روايات متعددة عن أسباب نزولهما غير هذا الوجه..

يقول: وعلى أية حال فإنَّ إطلاق النصِّ يوحي بأنه حكم عام في منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، والسعي في خرابها. كذلك الحكم الذي يرتبه على هذه الفعلة، ويقرر أنه هو وحده الذي يليق أن يكون جزاء لفاعليها.

وهو قوله: ﴿**أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ**﴾، أي أنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن، إلاّ أن يلجئوا إلى بيوت الله مستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين (وذلك كالذي حدث في عام الفتح بعد ذلك إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الفتح: من دخل المسجد الحرام فهو آمن.. فلجأ إليها المستأمنون من جبابرة قريش، بعد أن كانوا هم الذين يصدون رسول الله صلى الله عليه وآله ومن معه ويمنعونهم زيارة المسجد الحرام!

ويزيد على هذا الحكم ما يتوعدهم به من خزي في الدنيا وعذاب

---

١. الكشاف، للزمخشري : الآية .

عظيم في الآخرة: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وهناك تفسير آخر لقوله: ﴿أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ﴾،.. أي أنه ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلاّ في خوف من الله وخشوع لجلالته في بيوته. فهذا هو الأدب اللائق ببيوت الله، المناسب لمهابته وجلاله العظيم.. وهو وجه من التأويل جائز في هذا المقام...[1]

وأخيراً؛ فقد تبيّن أنَّ الصدَّ عن المسجد الحرام، ليس من خلق المؤمنين أبداً، بل هو عمل يدور مع تلك الفئات المعادية للإسلام حيث دارت، وأخصّ بالذكر مشركي مكة فهم الأكثر صداً عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وبالذات عن الكعبة؛ وجه الله الذي وجهنا جميعاً إليه، وبالتالي فهم وكلُّ من يفعل فعلتهم هذه يحولون بين الله ومراده، وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسنّته ومنهاجه، وبين البيت المحرّم وحجّاجه.. ويكونون بذلك الأكثر ظلماً لمشروع الله ورسوله ولمساجد الله وللعباد!

فليحذر كلُّ من يسير بسيرة أولئك المشركين عذابين عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة!

---

١. في ظلال القرآن : الآيتان .